

مجلة معهد المخطوطات العربية

علمية ، نصف سنوية ، محكَّمة ،
تُعنَى بشؤون التراث العربي

المجلد ٥٦ - الجزء الأول - جُمادى الآخر ١٤٣٣هـ / مايو ٢٠١٢م

معهد المخطوطات العربية

القاهرة

مجلة معهد المخطوطات العربية

المجلد ٥٦ - الجزء الأول



ALECSO

JOURNAL OF THE INSTITUTE OF ARABIC MANUSCRIPTS

Vol. 56 - Part 1 - May 2012

The Institute of Arabic manuscripts
Cairo - Egypt

ردمد ٢٢٠٩ - ١١١٠
I.S.A.N. 1110 - 2209

مجلة
معهد المخطوطات العربية

مجلة
معهد المخطوطات العربية

علمية ، نصف سنوية مُحكَّمة ، تُعْنَىٰ بالتعريف بالمخطوطات العربية ، وفهرستها ، ونشر النصوص المحققة ، والدراسات القائمة عليها ، والمتابعات النقدية الموضوعية لها .

المـدير المسـؤول : د. أحمـد يوسف أحمـد محمـد
رئيس التحـرير : د. فيصل عبد السلام الحفيان

* الأفكار الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي المنظمة والمعهد ، وترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية ، ولا علاقة له بمكانة الكاتب .

* يسمح بالنقل عن المجلة بشرط الإشارة ، وقواعد النشر وثمن النسخة في آخر المجـلة .

المجلد ٥٦ - الجزء الأول - جمادى الآخر ١٤٣٣هـ / مايو ٢٠١٢م

معهد المخطوطات العربية
القـــاهرة

مجلة معهد المخطوطات العربية / معهد المخطوطات العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) - مج ٥٦ ، الجزء الأول ، جُمادى الآخرة ١٤٣٣هـ / مايو ٢٠١٢م / ١٧٦ص .

ط/٢٠١٢/٠٤/٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

العثور على مجلد من «تاريخ إربل» لابن المستوفي (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)

د. بشار عوّاد معروف (*)

أنجزتُ أنا وصديقي د. صلاح جَرّار تحقيقَ «عيون الإمامة»، لأبي طالب المرواني، و«جُنَّة الرضا»، لابن عاصم الغَرْناطي، ونشرتْهما دار الغرب الإسلامي سنة ٢٠١٠م. ثم أنبهني د. صلاح إلى وجود مخطوطة في المكتبة الوطنية بتونس تُعنَى بالشُّعراء الأندلسيين، عنوانها «إهداء الأمراء في تواريخ الشُّعراء»، لمؤلِّف اسمه يوسف بن إبراهيم القُرْطبي، وحثَّني على تصويرها لنقومَ بتحقيقها ونشرها ضمن «سلسلة التراجم الأندلسية»، التي نشرت منها دار الغرب الإسلامي إلى الآن ثلاثةَ عشرَ مجلدًا بتحقيقنا.

وحين وجدت الفكرة حقيقة بالمتابعة، سألت عن هذه النُّسخة صديقي الصَّدوق الكُتبي العالم الفاضل الحاج حبيبًا اللَّمْسي، الذي لم يؤخِّرْ لي أمرًا ولم يَدَّخِرْ عني برًّا، فجَرَّد في هذا الأمر عنايته، وأظهر فيه كفايته؛ إذ سرعان ما وصلت إليَّ النُّسخة المذكورة؛ فلما بدأتُ في قراءتها وجدتُ التراجم بعيدةً البُعدَ كلَّه عنِ الأندلس والأندلسيين، فاشتدَّ حرصي على معرفة حقيقة هذه النُّسخة، وجعلت هذا الأمر دَيْدَني وهِجِّيراي وإربي الذي لا يعطِّله تَزاحمُ الأمور وتراكم الأشغال، فلم يمضِ كَبيرُ وقتٍ حتى تيقَّنت أن هذه النُّسخة هي مجلد، لعلَّه المجلَّد الخامس والأخير من تاريخ إِرْبِل

(*) باحث عراقي / أردني.

المسمَّى «نباهة البلد الخامل بمَن ورده مِنَ الأماثل»، وهو المجلَّد الخاصُّ بالشُّعراء منه[1].

تقع المخطوطة في مئتي ورقة وورقتين، كل ورقة ذات وجهين، والورقة الأولى، وهي طُرَّة النُّسخة وما خلفها - في ما أرى - مُلْصَقة بالكتاب الذي مِنَ المحتمل أن تكون الورقة الأولى الأصلية قد انْتُزعت منه وأُبدلت بهذه، لسرقة الكتاب أو لأمر آخر نجهله، قد يكون من فعل بعض الجهلة، وإن كنتُ أميل إلى الأول، كما سيأتي بيانه.

وقد جاء في طُرَّة النُّسخة: «كتاب إهداء الأمراء في تواريخ الشُّعراء تأليفَ العبد الفقيرَ [المحتاج] إلى عفو ربِّه القدير يوسف بن إبراهيم القُرْطبي، أسأله أن يرحمني ويرحم مَن طالَع في كتابي هذا، آمين». وعلى طُرَّة العنوان هذه تملُّكات متعددة.

(١) ذكر ابن خلكان ومَن نقل منه أن الكتاب في أربعة مجلدات (وفيات الأعيان ٤/ ١٤٧). وذكر السيوطي أنه وقف عليه في أربعة مجلدات (بغية الوعاة ٢/ ١٦٠). وذكر الزركلي في (الأعلام ٥/ ٢٦٩) أن الجزء الثاني حققه سامي الصقار، وأن الجزء الرابع في جستربتي وهو آخر أجزائه! مع أن الدكتور الصقار حقق مخطوطة جستربتي. أما الذهبي فذكر أنه في خمس مجلدات (تاريخ الإسلام ١٤/ ٢٥٦، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٥٠). وقال السخاوي في (الإعلان بالتوبيخ ص٦١٤): «وإِرْبِل لأبي البركات المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب ابن المستوفي، وهو بخطه في خمس مجلدات، وأكثر من فيه من أدباء وملوك، واختصره سليمان بن عبد الله بن أبي الحسن الزِّنجاني المكي».

وأنا اليوم أميل إلى كون الكتاب في خمسة مجلدات، مع أن المؤلف لم يسمِّه مجلدًا، بل فصلًا، فالذي وصل إلينا في مخطوطة جستربتي هو الفصل الثاني، فقد جاء في أوله: «الفصل الثاني في ذكر الأخيار والصلحاء والمحدثين (هذه اللفظة سقطت من المطبوع) والمتسبين بهم». ولعل ما بين أيدينا هو الفصل الخامس (أو المجلد الخامس)، فقد ذكر المؤلف في ترجمة أحمد بن علي بن ملاعب ما يأتي: «ممن ولد بإِرْبِل، وأبوه من عدولها، وقد ذُكِرَ في الفصل الرابع (الورقة ١٥٦ب، الترجمة ٢٢٧ من نشرتنا)، على أن عليَّ بن ملاعب مترجَم في الفصل الثاني (المطبوع، الترجمة ٦٣)!

وجاء في ظهر الورقة الأولى (١ب): «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله ربِّ العالمين والعاقبة للمتَّقين، والصلاة والسلام على أشرف المخلوقات وأفضل الموجودات سيدنا وسندنا، محمد صلى الله عليه وعلى آله وأهل بيته خير البريَّات، عددَ القائمين والقاعدين.

وبعد: فهذا مجموع ظريف قد حوى كل فن نظيف، خصوصًا فن التاريخ، سألني بعض الظرفاء أن أجمع له تاريخًا جامعًا لتواريخ الشُّعراء، وسميته «إهداء الأمراء في تواريخ الشُّعراء»، مستعينًا بالله وطالبَ العون.

هشام بن زُهْر رئيس الشُّعراء. ظهر في زمان مروان سنة خمس مئة وخمسين وكان فيها».

وإلى هنا تنتهي الورقة الأولى التي أرى أنها أُلْصِقت بالكتاب لتبدأ الورقة الثانية بما يأتي:

قال رحمه الله:

عَرَصاتِ دارِهم عليكِ سلامُ ... هل فيكِ بعد الظَّاعنين مُقامُ

وهذه القصيدة في حقيقة الأمر لأبي الحسن علي بن أحمد بن عثمان بن وَهْب بن عمر المعروف بابن الجَمَّاس، المتوفى بحَرَّانَ في رمضان سنة ٦٠٩هـ، وهو مترجَم في «قلائد الجُمان» لابن الشَّعَّار[1]، و«تكملة المُنْذِري»[2]، و«تاريخ ابن الفرات»[3]، وقد ذكرتْ له المخطوطة قصيدته التي مطلعها (وقال المؤلِّف: أنشدني لنفسه):

(١) قلائد الجُمان، تحقيق كامل الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٥م ٣/ ٢٤٨.
(٢) التكملة لوفيات النقلة، بتحقيقنا، مؤسسة الرسالة، ط٤، بيروت ١٩٨٨م ٢/ الترجمة ١٢٦٥.
(٣) تاريخ ابن الفرات ٩/ الورقة ٥٢-٥٣ (نسخة التيمورية رقم ٢١١٠ تاريخ).

صبٌّ عَراهُ مِنَ الصَّبابةِ ما عَرَى   وسَرَى الخيالُ بقَلْبه لمَّا سَرَى[1]

وقد أورد ابن الشَّعَّار القصيدةَ نفسها وصَدَّرها بقوله: «أنشدني الوزير الصَّاحب أبو البركات المستوفي، رحمه الله تعالى، قال: أنشدني ابن الجَمَّاس لنفسه من قصيدة أولها:

صبٌّ عَراهُ مِنَ الصَّبابةِ ما عَرَى   وسَرَى الخيـــالُ بقَلْبه لمَّا سَرَى

وذكر المؤلِّف في آخر الترجمة ما يشير إلى أن الترجمة لابن الجَمَّاس المذكور، فقال: «وكان ابن الجَمَّاس رجلًا من إِرْبِل طالبًا للمعاش قاصدًا بلاد الشام مادحًا مستجديًا للرِّفْد، ولم يكنْ خرج لذلك غيرَ هذه المرة، وذلك في شهور سنة تسع وستِّ مئة... وبلغتني وفاتُه في شهر رمضان من سنة تسع وستِّ مئة، ودفن بحَرَّانَ»[2].

وقد حوتِ المخطوطة (٣٣٥) ترجمة، كلُّها لشعراء من أهل إِرْبِل أو من الواردين إليها[3]، مما يعزِّز كونَ النُّسخةِ أحدَ مجلداتِ «تاريخ إِرْبِل» لابن المستوفي، فإضافةً إلى الأرابِلة المترجَمين فيه حرص المؤلِّف على استعمال عبارات ذات دلالة على اتصال المترجَم بإِرْبِل من نحو قوله: «ورد إِرْبِل في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة وستِّ مئة»[4]، و«ورد إِرْبِل المرة الأخيرة في سنة إحدى عشرة وستِّ مئة»[5]، و«ورد إِرْبِل وأقام بها مرة بدار

(١) الورقة ٢ب.
(٢) الورقة ٣أ.
(٣) انتهينا من تحقيق الكتاب بمشاركة الصديق الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار، وسيظهر مطبوعًا خلال الأشهر القادمة بإذن الله تعالى.
(٤) الترجمة ٢٩.
(٥) الترجمة ٣٣.

حديثها، ومرة بمدارسها يتفقَّه على مذهب الإمام أبي حنيفةَ ﷺ»[1]، و«يرد إِرْبِل في كلِّ سنة طالبًا لصَدَقَة مالكها»[2]، وقوله: «ثم اجتمعت به في ثامن عشري جمادى الأولى من سنة أربعَ عَشْرةَ وستِّ مئةٍ بظاهر إِرْبِل بزاوية تُعرف بزاوية أحمد بن المظفَّر الخراط، وكان ورد إِرْبِل عَقيبَ اعتقاله بمدة بالموصل»[3]، وقوله: «ورد إِرْبِل ومعه كتب للتِّجارة»[4]، و«ورد إِرْبِل وأقام بدار الحديث بها مدة»[5]، و«يتردد إلى إِرْبِل مستعطيًا نَزْرَ العطاء»[6]، و«ورد إِرْبِل ببضاعة مُزْجاةٍ»[7]، ونحو ذلك[8].

والنُّسخة - في ما أرى - كُتبت في حياة المؤلِّف أو بُعيد وفاته بسنياتٍ قليلة، يدلُّ على ذلك وجودُ خطِّ كمال الدين ابن الشَّعَّار الموصلي صاحب «قلائد الجُمان»، المتوفى سنة ٦٥٤هـ - عليها، فقد جاء بهامش الورقة (١٠٨ب) عند ترجمة هارون ابن الزَّوال تعليقٌ لابن الشَّعَّار يقول فيه: «قال الفقير إلى الله تعالى المبارك بن أبي بكر الموصلي: هو هارون بن العباس بن محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن يعقوب بن الحسين ابن أمير المؤمنين المأمون بن الرشيد بن المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطَّلب، أبو محمد بن أبي شجاع البغدادي، المعروف بابن الزَّوال، توفي في سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة ودفن بالمختارَة؛ محلَّةٌ بشرقيِّ

(١) الترجمة ٣٦.
(٢) الترجمة ٣٨.
(٣) الترجمة ٤٠.
(٤) الترجمة ٤٣.
(٥) الترجمة ٤٧.
(٦) الترجمة ٥١.
(٧) الترجمة ٥٢.
(٨) تنظر مثلًا التراجم ٤٨، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٢، ٦٣، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٦، ٨٦، ٨٨، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦، ١١٢... إلخ.

بغداد. وكان فيه فضل، وله معرفة بالأدب، سمع قاضي المارِسْتان وغيره وحَدَّث. وصار إليَّ من تآليفه كتاب سماه «منهاج الطَّالبين في ذكر السَّالفين» يشتمل على خمسة أجلاد في التاريخ والحوادث، ذكر فيه إلى أيامه».

وخطُّ ابن الشَّعَّار معروف عندي، وله تعليقات بخطِّه على النُّسخة الخطية مِنَ المجلد الثاني من «تاريخ إِرْبِل» المحفوظة في جستربتي[1]، ومعلوم أن هذا المجلد كتب سنة ٦٤١هـ كما نص عليه الناسخ في آخره. على أن المقابلة بين النسختين تشير إلى اختلاف في الخط وتنظيم التراجم وتخطيط الأوراق، مما يقطع أن المجلد الذي بين أيدينا ليس جزءًا مِنَ النُّسخة التي وصل إلينا المجلد الثاني منها، لكن مِنَ المتيقَّن أنها قديمة؛ لوجود خط ابن الشَّعَّار عليها.

ومِنَ الطَّريف أن من ألصق الورقة الأولى بهذه النُّسخة - وهي طُرَّة كتاب «إهداء الأمراء» - قد كتب في أسفل الورقة «التَّبَّاعة» للدلالة على صحة الورقة الثانية بعدها، وهي عبارة: «قال رحمه الله»، وهذه «التَّبَّاعة» لم تستعمل في بقية أوراق المخطوطة. كما أنه كتب في الورقة الأخيرة من المخطوط بخطٍّ مخالف: «تم ما أردنا جمعه من كتاب إهداء الأمراء في تواريخ الشُّعراء، على يد مؤلِّفه الفقير يوسف بن إبراهيم القُرْطبي، سنة ثمان مئة»، علمًا بأن آخر تاريخ مذكور في هذه النُّسخة الخطِّيَّة هو سنة ٦٣٢هـ[2]، وهذا كلُّه يدلُّ على محاولة انتحال هذا الكتاب.

(١) تنظر الأوراق ٣٤ب، ٣٥ب، ٦٧ب، ١١٧أ، ١٨١ب، ٢٠٣ب، ٢١٠أ، ٢١٢أ ...إلخ.

(٢) الترجمة ٨٢، وفيها: «قتل يوم الخميس... من سنة اثنتين وثلاثين وست مئة»، كما ذكرت وفاة بعضهم سنة ٦٣١هـ (الترجمة ١٦٩ و١٧٩ و١٨٨)، وآخر في شوال سنة ثلاثين وست مئة (الترجمة ١٤٩). وقد لاحظ الدكتور الصقار في القسم الذي حققه أن آخر تاريخ مذكور فيه هو سنة ٦٣١هـ (تنظر المقدمة ١/ ٢٣)، وهذا كله يدل على أن المؤلف ظل يتعاهد كتابه إلى سنة ٦٣٢هـ، ثم توقف عن ذلك.

ومما يؤكد كون هذه النُّسخة مجلدًا من «تاريخ إِرْبِل» لابن المستوفي ظهور ذاتية المؤلِّف في كثير من تراجم الكتاب، ومنها:

أولًا- العناية بذكر شيوخه:

فقد قال في ترجمة أبي الرأي هارون، المتوفى في رمضان سنة ٦٠٨هـ: «سمع الحديث معي على أبي المظفَّر المبارك بن طاهر الخُزَاعي، وأبي المظفَّر نصر الله بن سلامة الهِيتيِّ، وأبي المعالي صاعد بن علي الواسطي»[1].

وقال في ترجمة صَدَقَة الموصلي: «كان يَترَدَّد إلى حَلْقة شيخنا أبي الحَرَم مكِّيِّ بن ريَّان رحمهُ الله»[2].

وقال في ترجمة أبي عبد الله الحسين بن الحسن بن عبد الله الإِرْبِلي: «كان يعلِّم الصِّبْيانَ بقلعة إِرْبِل في مسجد تجاه المدرسة... أول من أُسلِمتُ عنده لتعلُّم الخط، كان رَقيعًا مِنَ المعلِّمين»[3].

وقال في ترجمة ابن كودلا الطحان: «كان بإِرْبِل في جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمس مئة، رأيته وأنا صبي وهو ينسخ كتاب «التذكرة» لابن حَمْدون»[4]، ومعلوم أنَّ ابن المستوفي ولد سنة ٥٦٤هـ[5].

وسيرة ابن المستوفي تتفق مع ما قدَّمنا من ذكر الشيوخ، قال الذهبي في «تاريخ الإسلام»: «ولد بإِرْبِل في سنة أربع وستين وخمس مئة. قرأ القرآن والأدب على أبي عبد الله محمد بن يوسف البَحْراني، وأبي الحَرَم مكيِّ بن

(١) الورقة ٥ب، الترجمة ٢، وتنظر الترجمة ٣، ١٣، ٢٢.

(٢) الورقة ٩٨ب، الترجمة ١٤٢، وتنظر الترجمة ٤٢.

(٣) الورقة ٢٠ب (الترجمة ٢٤).

(٤) الورقة ٨١أ (الترجمة ١٠٩).

(٥) وفيات الأعيان ٤/ ١٥١.

ريَّان الماكِسِينيِّ. وسمع من عبد الوهاب بن أبي حَبَّةَ، والمبارك بن طاهر الخزاعي، وحنبل بن عبد الله، وعمر بن طَبَرْزَد، وعبد اللطيف بن أبي النَّجيب السهروردي، وأبي المعالي نصر الله بن سلامة الهِيتيِّ، وخَلْقٍ كثير من القادمين إلى إِرْبِل»[1].

ثانيًا- ذكر أقربائه:

قال في ترجمة أبي بكر محمد بن هبة الله بن إبراهيم بن شماس الإِرْبِلي، المعروف بسعد الدين المَرَنْديِّ: «وله القصيدة المشهورة في تعليم الرياضة، سمعتُه وهو يمليها على أخي أبي العزِّ المظفَّر بن أحمد بن المبارك بن مَوْهوبٍ في منزل والدي زمن حياته، وهي طويلة أولها... إلخ»[2].

وقال في ترجمة أبي عبد الله حسين بن الحسن الإِرْبِلي المعروف بالأديب حسين: «ونقلتُ من خطِّه يقول لعمِّي أبي الحسن علي بن المبارك، رحمه الله»[3].

وأبوه وعمُّه معروفان، قال الزَّكيُّ المُنْذِريُّ في ترجمته: «وهو من بيت فضيلة وتقدُّم؛ والده أبو الفتح أحمد، ولي الاستيفاء بإِرْبِل بعد والده إلى أن مات، وأخوه أبو الحسن علي بن المبارك، تأدَّب وسمع الحديث وكان فاضلًا يكتب العربية والعَجَمية وله نظم ونثر، وكتب لصاحب إِرْبِل مدةً. ووالدهما أبو البركات المبارك بن مَوْهوبٍ، تولَّى الاستيفاء بإِرْبِل مدة، وله شعر»[4].

(١) تاريخ الإسلام ١٤/ ٢٥٦ بتحقيقنا.
(٢) الورقة ١٧ب (الترجمة ٢١).
(٣) الورقة ٢١أ (الترجمة ٢٤).
(٤) التكملة، ٣/ الترجمة ٢٩٠٨.

ثالثًا- مدح الشُّعراء له:

يلاحظ القارئ أن كثيرًا من المقطَّعات والقصائد الشعرية موجَّهة إليه إما مدحًا له أو استعطافًا، أو أملًا في عطية، أو توسُّطًا لدفع مَظْلِمة أو حلِّ مشكلة، لما كان يتمتع به مِنَ المنزلة الرفيعة في هذه المدينة بحكم منزلته الوظيفية وعَراقة بيته ويساره.

ومن هذا الشعر ما صَرَّح بشيءٍ من اسمه من نحو قوله في ترجمة ابن شيبوص: «وكتب إليَّ...».

قصدتُكَ يا ابن مَوْهوبٍ المُرَجَّى وفيكَ مِنَ المديح نظمتُ شعرا[1]

ومن ذلك ما جاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر بن زكريَّا الشَّيْباني:

يا آل مَوْهوبٍ وأنتـم جُنَّـتي من سـائر الأعـداء والأشرارِ
وذخـيرتي لصروف دهـرٍ جـائرٍ قـد ناشَني بالنَّـاب والأظفارِ[2]

كما أن النَّقْل الحَرْفي من «تاريخ إِرْبِل» يؤكد صحَّة هذه النُّسخة ونسبتها. وقد أكثر المؤلِّفون الذين جاءوا بعد ابن المستوفي من النقل من كتابه، مثل ابن الشَّعَّار (ت٦٥٤هـ) في «قلائد الجُمان»، وابن العَدِيم (ت٦٦٠هـ) في «بغية الطَّلَب»، وابن خَلِّكان (ت٦٨١هـ) في «وفَيَات الأعيان»، والذهبي (ت٧٤٨هـ) في «تاريخ الإسلام» و«سير أعلام النبلاء»، وغيرهما، وصلاح الدين الصَّفَدي (ت٧٦٤هـ) في «الوافي بالوفَيَات»، وابن شاكر الكُتُبي (ت٧٦٤هـ) في «فوَات الوَفَيَات»، والسيوطي (ت٩١١هـ) في «بغية الوعاة»، وغيرهم، وهي مِنَ الكثرة بما لا يتَّسع المجالُ لذكرها هنا.

(١) الورقة ٨٥ب (الترجمة ١١٧).
(٢) الورقة ٩٤أ (الترجمة ١٣٤). وناشه ينوشه: تناوله.

على أنني أرى أن من المفيد الإشارة إلى النَّقْل الحَرْفي الذي صَرَّح به ابن الشَّعَّار في النقل من هذا المجلد، خاصة في كتابه «قلائد الجُمان في شعراء هذا الزمان»؛ ذلك لكون هذا الكتاب مِنَ المصادر الأساسية لابن الشَّعَّار، ولعلَّ في ما أذكره من أمثلة قليلة يكفي للتدليل على صحة ما ذهبت إليه مِنَ الجزم بأن هذا المخطوط هو مجلد من «تاريخ إِرْبِل» لابن المستوفي.

١ - قال في ترجمة هارون بن الحسين بن كُرجي بن هارون:

«ذكره الصاحب الوزير شرف الدين أبو البركات المستوفي رحمه الله في تاريخه وقال: إِرْبِلي المولد والمنشأ، خَدِينٌ لا يطمع الغدر في وفائه، وقَرينٌ لا يحلُّ الدهر عَقْدَ إخائه، ومُصاحِبٌ استوى في الصُّحْبة مَغِيبُه ومَشْهدُه، ومخالِطٌ اعتدل في الخُلْطة مصدره ومورده؛ فهو مأمونةٌ مكائدُه وغوائلُه، محمودة أواخرُهُ وأوائلُهُ، عَذُبت أخلاقُه رقةً وصفاءً، ومُلئ وجهُهُ بِشرًا وحياءً، له أدبُ نَفْس كالزَّهْر النَّضير، ووثيقة رأي مُحكمةُ التدبير، وإشفاقٌ على مُعاشِره وصديقه يجاوزُ إشفاقَ الأخِ على شقيقه، ونصيحةٌ للمستشير بآرائه يستشفُّ المغيَّب من ورائه... إلخ»[1].

وهذا النص موجود بحروفه في ترجمة أبي الرأي هارون مِنَ النُّسخة الخطية (الورقة ٣أ-٣ب).

ثم ساق كثيرًا من شعره الذي ذكره ابن المستوفي في هذا المجلد من تاريخه.

٢ - وقال في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن محمود بن هبة الله الكَفْرعِزِّي:

«حدثني الصَّاحب أبو البركات في تاريخه، قال: توفِّي أبو إسحاق بإِرْبِل

(١) قلائد الجُمان ٧/ ١٨١.

ليلة الجمعة تاسع شهر رمضان سنة عشرين وستِّ مئة، ووصَّى أن يُحمل إلى كفرعزة ويدفن فيها، فحُمل ودُفن بها. ثم قال: وذكر لي القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الكفرعِزِّي: أن عمره خمس وثمانون سنة.

وأنشدني الصاحب أبو البركات، قال: أنشدني أبو إسحاق لنفسه:

لعَمْرُك ما فَعَلَ الأُسودُ إذا اعتَدَتْ ... ولا السَّمْهريات العَوالي ولا الظُّبَى

كما تفعل الأشواق في قلب وامِقٍ ... إذا حَنَّ يومًا للمعالي أو صَبَا»[1]

وهذه النصوص جميعها في النُّسخة الخطية (الورقة ٨ب و٩أ).

٣ - وقال في ترجمة أبي محمد عبد السَّلام بن عبد الرحمن بن يوسف البوباني[2] المغربي:

«حدثني الصاحب أبو البركات المستوفي رحمه الله بإِرْبِل قال: كان أبو محمد ينسخ ويكتب واضحًا، قدم إِرْبِل غير مرةٍ، وتوفي بها سنة أربع وست مئة وأخذ عامل التَّركات تركته. وكان قد قصد بشعره الملوك، أنشدني رحمه الله لنفسه في شهر رجب من سنة ثمان وتسعين وخمس مئة بإِرْبِل، وهي أول قدماته:

رُوَيْدَك أيُّها الرشأ الغَرِيرُ ... فكم أغرى بغرتك الغرورُ»[3]

ثم أكمل القصيدة وهي في اثني عشر بيتًا، والترجمة مع القصيدة بتمامها في النُّسخة الخطية (الورقة ١٥أ).

(١) قلائد الجُمان ١/ ٩٨.

(٢) في النسخة: البوني.

(٣) قلائد الجُمان ٢/ ٣٦٤.

٤ – وقال في ترجمة أبي يوسف يعقوبَ بن سُنْقُر بن عبدِ الله التُّركي الإِرْبِلي:

«ذكره الصاحب الوزير العالم أبو البركات المستوفي، رحمه الله تعالى، في كتابه وقال: من أولاد مماليك الفقير إلى الله تعالى أبي سعيد كُوكُبُوري بن علي بن بُكْتكِينَ ﷺ(١)، كان أبوه سُنْقُر يلقَّب بالمعتمد. ويعقوب ولده هذا(٢): صبيٌّ ذكيٌّ له طبعٌ صحيحٌ في الشعر(٣)، غير أنه في أكثر شعره، لا بل في أقلِّه، لا يكاد يقيم الإعراب والوزن. له أشعار كثيرة. وكان له مع صغره منزلة من الفقيـر إلى الله تعـالى أبي سـعيد كُوكُبُوري بن عليٍّ لم يعـرف قدرها فيشكرها، وكان لا يواظب على خـدمة بابه، فحبسه مرارًا فلم يستقمْ فأخرجه، وسافر إلى الموصل مرارًا فأقام فيها في درب المطربين بين لهوٍ وقَصْفٍ وشُربٍ وعَزْفٍ(٤)، يخرج من دار هذه إلى دار أختها. ثم خرج عن الموصل فهو الآن بخِلاطَ(٥) على ما كان عليه بالموصل، وقال الشعر صغيرًا وكثر منه.

ثم قال: وأنشدني لنفسه بالموصل في سنة ست وتسعين وخمس مئة وحَلَّفته بالله أنها له، فحلف على ذلك (ثم ذكر ثلاثة أبيات))»(٦)، وهذه الترجمة بتمامها مع الأبيات الثلاثة كلها في النُّسخة الخطية (الورقة ١٦ب-١٧أ).

(١) قوله: «بن بُكْتكين ﷺ» ليست في النسخة الخطية.
(٢) قوله: «ويعقوب ولده هذا» من زيادات ابن الشَّعَّار.
(٣) قوله: «في الشعر» ليس في المخطوط.
(٤) في المطبوع من القلائد: «وغرف»، وهو تصحيف.
(٥) في المطبوع من القلائد: «بخلاف»، وهو تحريف.
(٦) قلائد الجمان ٨/ ٨٩.

٥ – وفي ترجمة أبي العباس أحمد بن الخضر بن أبي بكر بن حَسْكُويَه نقل ابن الشَّعَّار عن أبي البركات ابن المستوفي في «تاريخه» أنه قال فيه: «إِرْبِلي المولد والمنشأ، ويعرف بحُمَيْدانَ. أول ما اشتغل بالفقه على مذهب الإمام الشافعي ﷺ(١)، بالمدرسة المجدَّدة بدَرْب السَّهْرية، وكان ذكيًّا وقحًا، وأخذ شيئًا من الخلاف، وسمع معنا الحديث على الشيخ أبي المظفر المبارك بن طاهر بن المبارك البغدادي الخزاعي المقرئ(٢)، وختم عليه الكتاب العزيز...

أنشدني لنفسه، ونقلته من خطِّه، وكتبها إلى أبي الثناء محمود بن محمد ابن الأنجب:

قُـل للـذي فـاقَ الـوَرَى ... بالفَضْـل والتَّفضُّـلِ»

(فذكر سبعةَ أبيات، ثم سبعة أبيات كتب بها إليه جوابًا أبو الثناء محمود بن أحمد)، وكان ذكر وفاته يوم الأربعاء ثاني عشر شهر رجب سنة ٦١٣هـ(٣).

وهذه الترجمة بتمامها في المخطوط كما نقل ابن الشَّعَّار (١٨ب-١٩أ).

٦ – أن جميع الأشعار المذكورة في «قلائد الجُمان»، لأبي عبد الله محمد ابن أبي الحسن بن حماد الإِرْبِلي المولد والمنشأ(٤)، مأخوذة من «تاريخ إِرْبِل»، لابن المستوفي (المخطوط، الورقة ٢٥ب-٢٦أ).

(١) قوله: «على مذهب الإمام الشافعي ﷺ» ليس في النسخة الخطية.
(٢) قوله: «بن المبارك البغدادي الخزاعي المقرئ» ليس في النسخة الخطية، فكأن العبارة من زيادة ابن الشَّعَّار للتعريف بالشيخ.
(٣) قلائد الجمان ١/ ٢١٩-٢٢٠.
(٤) قلائد الجمان ٥/ ٢٥٠-٢٥١.

٧ – ونقل جميع ترجمة أبي القاسم محمد بن محمد بن محمد بن أبي حنيفة الفَرَضي، عن ابن المستوفي تصريحًا[١]، كما جاءت في النُّسخة الخطية (الورقة ٢٦أ).

٨ – وقال في ترجمة أبي البركات هبة الله بن أبي الحسن بن بيمك النَّصْراني المصري:

«وقد ذكره الوزير الصاحب العالم أبو البركات ابن المستوفي ﷺ في «تاريخه» الذي ألفه لإِرْبِلَ، وقال: سألت أبا البركات بن بيمك عن مولده فقال: ولدت في دمنهور الوحش سنة ثلاث وستين وخمس مئة».

وقال: «ورد إِرْبِل بعد أنِ اعْتُقِل مدة طويلة، وكان يلي بعض أعمال الملك الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب، فنَقِم عليه وأخذ ماله، فورد إِرْبِل والْتَحق بالملك المعظم أبي سعيد كُوكُبُوري بن عليٍّ لما كان في بلاد العَجَم سنة إحدى عشرة وست مئة، ووصل إلى إِرْبِل، فتوصل إلى أن صار له إشْرافُ الدِّيوان بالقلعة. يكتب حَسَنًا. وزعم بعض المصريين أن بيمك امرأة نُسِبوا إليها.

وأنشدني، قال: أنشدني أبو البركات بن بيمك لنفسه»، (ثم ذكر ثلاثة أبيات سينية مِنَ الوافر)[٢].

وهذه النصوص كلُّها في النُّسخة الخطية (٤١أ-٤١ب).

وأرى أنَّ في ما قدمنا كفاية تؤكد أن هذه النُّسخة إنما هي مجلد من «تاريخ إِرْبِل» لابن المستوفي، خاصٌّ بالشُّعراء.

(١) قلائد الجمان ٦/ ٣٠٩-٣١٠.

(٢) قلائد الجمان ٧/ ١٤٣.

المترجَمون في هذا المجلد:

مِنَ المعلوم أن المؤلِّف لم يرتب كتابه استنادًا إلى أيٍّ من أنواع التنظيمات المعروفة في كتب التراجم والتي تنظم إما على الأنساب، أو الطبقات، أو الوفيات، أو حروف المعجم[١]. والظاهر أن المؤلِّف قد جمع مادة الكتاب في جُزازات وأوراق فدوَّنها كما تجيء لا كما يجب مِنَ التنظيمات، إضافة إلى خلوِّ بعضها مِنَ المعلومات الأساسية مثل: اسم الشاعر أو زمانه ونحو ذلك، ومن ثم رأيت من المفيد أن أقدم قائمة مرتَّبة على حروف المعجم لسائر المترجَمين في هذا المجلد، وهي (٣٣٥) ترجمة[٢].

اسم المترجَم	الترجمة	الورقة
إبراهيم بن عبد السيد بن إسماعيل الإِرْبِلي البَقّال، شمس الدين أبو إسحاق	٣٠٥	١٨٧أ
إبراهيم بن عبد الوهَّاب الدَّاعي العَلَوي	٢٥٣	١٦٧أ
إبراهيم بن أبي العزِّ بن أحمد بن المبارك بن مَوْهوب	٢٧٧	١٧٧ب
إبراهيم بن علي بن محمود بن هبة الله الكَفْرعِزِّي، أبو إسحاق	٧	٨ب
إبراهيم بن عمر بن سعد بن صَدَقَة، ضياء الدين أبو حمزة، يعرف بابن البُورياني	١٠٧	٧٨ب
إبراهيم بن أبي القاسم بن أحمد بن علي بن يوسف الشَّحَّام، همام الدين، شيطان الشرق	٢٠٤	١٣٨أ

(١) ينظر عن تنظيم كتب التراجم بحثي: أصالة الفكر التاريخي عند العرب، المنشور في بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد (١٩٧٣) ص٩٠٠-٩١١ خاصة.

(٢) من الطريف أن المجلد الثاني الذي نشره الدكتور الصقار قد احتوى (٣٣٥) ترجمة أيضًا!

(١) في تبصير المنتبه ١/ ١٣٩: كـ(يَرَى) غير أنه بالمثلثة. وضبطه محقق تاج العروس (ث.ر.ي) بالفتح مخففًا. (المجلة).

جعفر بن غازي بن علي بن محمد بن أبي سعيد	١٢	١١ب
جعفر بن محمد بن علي، شرف الدين أبو الفضل، ابن البديع الأنصاري المصري	٩٢	٦٧ب
حاتم الضَّرير	١١٠	٨١ب
حاتم بن مسعود بن حاتم بن أبي الحسن الرَّبَعي الحِلِّي	١٨٤	١٢٣ب
الحسن بن جعفر بن محمد، أبو محمد المدائني الحسيني	١٦٨	١١٤أ
الحسن بن الحسين بن علي بن محمد، أبو محمد البغدادي الضَّرير	٤٢	٣٣أ
الحسن بن علي بن شَمّاس بن هبة الله، عزُّ الدين أبو محمد	٣٢٩	٢٠٠ب
الحسن بن علي القرشي العراقي، أبو علي	٥٧	٤٤أ
الحسن بن علي بن محمد بن أحمد، أبو علي الموصلي الجَرائحي	١١٢	٨٢أ
الحسن بن المبارك بن علي بن الحسين، أبو الهيجاء، ابن شيبوص	١١٧	٨٥أ
الحسن بن محمد الدمشقي، شهاب الدين	١٧٢	١١٨أ
حسن بن يوسف بن إبراهيم الحلبي	٢٠٥	١٣٩أ
حسين بن الحسن بن عبد الله الإِرْبلي، أبو عبد الله المعلِّم، يعرف بالأديب حسين	٢٤	٢٠ب
حسين بن محمد بن أحمد بن علي الإِرْبلي، من بني الرَّطْلية	١٣٤	٩٤ب
حَمّاد البَوازيجي	٢٩٩	١٨٥أ
حَمْد بن لباس بن رفاعة بن درع النَّبْهاني	٢٦٩	١٧٣أ
حَيْدَر بن فارس بن خُرِّين، زعيم الدين (القادسي)	١٦٢	١١٠ب

الخَضِر بن أبي طالب بن عقيل بن نصر بن عقيل، شهاب الدين أبو العباس (الإِرْبلي)	١٦٠	١٠٩ب
خضر بن محمد بن خضر بن نفيس، ركن الدين أبو العباس الإِرْبلي	٨٧	٦٢ب
خُطْلُبا بن البُقْش[1] الجَزَري	٢٨٣	١٧٩أ
داود بن بابكر، فلاحٌ من صالحاباذ (من قرى إِرْبل)	٨٣	٥٩ب
داود بن سليمان بن علي بن سالم الدمشقي، عماد الدين أبو سليمان، المعروف بابن الحموي الواعظ	٣٦	٢٩أ
داود بن علي بن سليمان بن علي، ابن السُّليماني	١٩٥	١٣٢أ
داود بن محمود بن علي، زعيم الدين	٢٥٨	١٦٩ب
الربيع بن علي الفارقي	٢٠٢	١٣٦أ
رَسَن بن مُصَبِّح بن حمل، أبو لِجَامٍ النُّفاضيُّ	٢٩٣	١٨٢ب
ابن زيد	١٨٣	١٢٣أ
سالم، أبو المجد الدمشقي الكِنْديُّ	٢٥	٢١ب
سالم بن سلمان بن صالح، أبو منصور العُبَاديُّ	٢٩٢	١٨١ب
سالم بن سلمان المُرَقَّعي	٢٥٢	١٦٦ب
سالم بن محمود بن سالم (الإِرْبلي)	٢٧٠	١٧٣ب
السَّبْتي بن مَطَر بن عَسْكَر بن قائد بن سعد الفَرّاش	٣٠٦	١٨٧ب

(١) ذكر الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي في توضيح المشتبه ٩/ ١١٦ هذا اللقب لاثنين؛ أحدهما لعمر بن عبد الله بن حصن بن بزان الضَّرير (ت ٦١٩هـ) وضبط لقبه «البَقُش»؛ بفتح الموحدة وضم القاف. والثاني لعلي بن البقش المقرئ، وضبط لقبه «البُقَش» بضم الموحدة وفتح القاف. (المجلة).

عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن بختيار الكرخيني، شرف الدين أبو سليمان	١٦٩	١١٦أ
عبد الرحمن بن منصور بن أبي بكر، أبو محمد (القَنْطَرِيُّ)	٣١٩	١٩٤أ
عبد السلام بن عبد الرحمن بن يوسف، تقي الدين أبو محمد المغربي البُوني	١٦	١٥أ
عبد العزيز بن عبد الرحمن بن مكي البزاز (البغدادي)	١٧٠	١١٧أ
عبد العزيز بن عثمان بن منصور بن أبي الفوارس، عز الدين أبو محمد (الإِرْبِلي)	٦٩	٥٢ب
عبد القادر بن أميري بن بَخْتِيار بن الحسل الأُشْنُهيُّ، صدر الدين أبو محمد	٤١	٣٢ب
عبد المحسن بن عبد القادر بن عبد المحسن النَّصيبي	٢٤٦	١٦٤أ
عبد الواحد بن بدر بن أبي بكر بن عمر الكرخيني، فخر الدين	١٣٨	٩٥ب
عثمان بن خُمارتاشَ الهِيتيُّ، نور الدين أبو محمد	١٦٣	١١١أ
عثمان بن سلامة بن أبي الفتح البَوازيجي، مهذَّب الدين أبو عمرو الخراط البَوازيجي	٢٧٨	١٧٧ب
عَرِبي بن رَفِيل[1] بن مُقَلَّد بن نزار الأسدي	٢٨٧	١٨٠ب
أبو العلاء بن عبد الأعلى الواسطي	٢٠٨	١٤٠ب
علي بن إبراهيم، أبو الحسن الموصلي النَّسَّاج	٦٤	٥٠أ

(١) كذا ضبطه د. بشار «رَفِيل» بفتح فكسر. ولم نقف على ترجمته، غير أنه أورد في الإكمال ٤/ ٩٤، ٩٥ وتبصير المنتبه ٢/ ٦٤٤، وتاج العروس (ر.ف.ل): رفيل بضم ففتح - كزبير - جماعة من المحدِّثين. (المجلة).

علي بن أحمد بن عثمان بن أبي الجيش البَوازيجي	٣٠٤	١٨٦ب
علي بن أحمد بن عثمان بن وهب بن عمر، أبو الحسن ابن الجَمَّاس	١	٢أ
علي بن أسعد بن عبد العزيز الخطيب، أبو أحمد الدَّقُوقي	٢٣٠	١٥٧أ
علي بن الأنجب بن ما شاء الله بن الحسن، ضياء الدين أبو الحسن البغدادي	١٥	١٤أ
علي بن جَلْدَك المَلَكي الكاملي، علاء الدين	٨٠	٥٧أ
علي بن الحسن بن علي بن سلمان الأَوَاني، أبو الحسن الخَرَّاط الموصلي	٦٦	٥٠ب
علي بن الحسن بن محمد بن أبي القاسم الفصال، زين الدين	٣١٥	١٩١أ
أبو علي الحِلِّي الهودي	٢٩٥	١٨٣ب
علي بن أبي الرضا بن أبي العباس البغدادي	١١٦	٨٣ب
علي بن أبي الرضا بن محمد بن زكريا الحُسيني، أبو الحسن	١٧٥	١١٩ب
علي بن الشهاب بن عباس الضَّرير الواسطي، سراج الدين أبو الحسن	١٤٠	٩٦ب
علي ابن الصَّباغ رمضان	٢٨٠	١٧٨أ
علي بن العباس الكِنَّري	١٢٩	٩٢أ
علي بن عثمان المَحلِّي بن علي، نظام الدين أبو الحسن الواعظ الجزَري	١٩	١٦أ
علي بن علي بن سالم، أبو الحسن ابنُ شيبوص	٢٨٨	١٨٠ب
علي بن عمر بن أحمد الموصلي، الجاروس	٣١٣	١٩١أ

مسعود بن أشمويك بن إبراهيم اليهودي	٢٦٤	١٧١ب
مسعود بن محمد بن علي بن أحمد الرَّبَعي	٢٧٦	١٧٧أ
مسعود بن محمد بن المظفَّر بن الحُصين، أبو الفتح البلدي	٢٣٣	١٥٩أ
مسعود بن مَوْدود بن سعيد، جمال الدين الكرخيني	١٩٣	١٣٠ب
مُصْلح بن عارية بن مُفْلح بن طَرْخان، أبو عارية	٢٩٤	١٨٣أ
أبو المظفَّر بن الأغر بن أبي الحسن بن يعقوب (الواسطي)، مهذَّب الدين	١٧٦	١٢٠أ
مظفَّر بن محمد بن إبراهيم، فخر الدين أبو نصر، يعرف بابن سعود وبابن الأَوَاني	٣٢٠	١٩٤ب
المظفَّر الموصلي	١٠٥	٧٦ب
أبو المعالي البغدادي	٢٢٠	١٤٨أ
أبو المعالي بن أبي السَّعادات بن الفضل ابن البَحْري النَّصْراني، الموفَّق	٣٣٢	٢٠١أ
مَعْن بن مالك بن قِرْواش، من آل مُقْبل	٣١٤	١٩١أ
منصور بن أبي القاسم بن عبد الله الواسطي	١٧١	١١٧ب
مَواهِب الشاعر	١٢٣	٨٩ب
مَوْدودُ بن مسعود بن عثمان، شرف الدين (الإِرْبلي)	٢٧١	١٧٤أ
مَيْمون بن مسعود بن علي المغربي الأنصاري، أبو عمرو	٥٦	٤٣ب
ناصر بن محمد بن سعادة بن مسعود، من نُفاضة	٣٠٠	١٨٥ب
ناعم بن عامر بن سويد النُّفيعي السِّنْجاري، أبو عبد الله	١٣٥	٩٤ب
نَبْهان بن محمود بن عثمان، أبو اليَقْظان (الإِرْبلي)	٢١٥	١٤٥ب

النَّجيب الخُوارزمي	١٤٨	١٠٠ب
نصر بن الفتح بن باقلا، شرف الدين أبو طاهر البغدادي	٧١	٥٣ب
نصر بن محمد بن مالك القرشي (أظنُّه من المغرب)	٢٦٧	١٧٢ب
نصر الله بن أبي الفرج بن عَبْدون بن المفرِّج الحلبي، نفيس الدين أبو الفتح، ابن عَبْدون	١٤٩	١٠٢أ
نصر الله بن يوسف بن أبي الفتح الكِناني، جمال الدين أبو الفتح المصري الخَطَّاط	٦٣	٤٨ب
هارون بن الحسين بن كُرجي بن هارون، الأمير أبو الرأي	٢	٣أ
هارون بن الزَّوَال	١٥٩	١٠٨ب
هبة الله بن إبراهيم بن هبة الله بن خلف بن كودلا النِّيلي الطَّحَّان	١٠٩	٨١أ
هبة الله بن أبي الحسن بن بيمك، سديد الدولة أبو البركات النَّصْراني المصري	٥٣	٤١أ
هبة الله بن محمد بن شُكْر، أمير الدين أبو البركات المصري	٩٧	٧٠ب
أبو الهيجاء بن عيسى بن ياروخ الموصلي المِهْراني، جمال الدين	٢٩٠	١٨١أ
الواعظ ابن المدني المصري	٢٢٥	١٥٢ب
أبو الوَحْش الخبَّاز الموصلي	٢٢٢	١٤٩أ
يحيى بن إسماعيل بن موسى الرَّبَعي، أبو زكريا	٣١٧	١٩٢أ
يعقوب بن سُنقُر، بدر الدين أبو يوسف	٢٠	١٧ب
يعقوب بن عثمان، عفيف الدين ابن المقرئ	٢٨٢	١٧٨ب

❋ ❋ ❋

بقية أشعار بني سَعْد

د. وليد السَّراقبي (*)

بنو سعد قبيلة عربية عدنانية ينتمون إلى بكر بن هَوازِن بن منصور بن عكرمة، بن خَصَفة بن قيس بن عَيْلانَ بن مُضَر بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان[1].

وقد تفرَّعت سعد إلى بطون وأفخاذ، فولَد سعد بن بكر بن هَوازن نَصْرًا وجَبَلًا، وأُمُّهما بنتُ عامر بن ظَرِب، وعوفًا وجنَّة. ولد نصرُ بنُ سعد فُصَيَّة، وعَوْفًا وجَبَلًا، وأُمُّهم تعلَّةُ بنت الحارث بن فهر بن مالك من قريش. فولد فُصَيَّة بن نصر نَضْلة، وناصرة، وذؤيبة ومنقذًا، وأُمُّهم أرنبُ بنت عَميرة بن وديعة بن الحارث بن فِهْر، فولد ابن فُصَيَّة غُوَيْثًا، بطن. ولد ناصرة بن فصية مِلَّان، ومُلَيلًا دَرَجَ، وجابرًا، وفاتكًا، ووقدان، فولد مِلَّانُ مَعْبَدًا، بطن، وعبادةَ ورفاعة، وعميرة[2].

ومن بطونهم[3]: غُويث[4]، ومعبد، وحرام، وجابر، وعوف، وجُشَم، وذؤيبة، وحليمي، وعمير، والوقَعَة، وحبيب.

(*) كلية الآداب الثانية، حماة، سورية.

(١) جمهرة ابن حزم ٤٨١.

(٢) جمهرة ابن الكلبي ٢:٨٨.

(٣) انظر تفصيل أنسابها في: بنو سعد بن بكر للأستاذ تركي بن مطلق القداح، ص٢١-٢٣، و٧٦، وانظر مصادره ثمة.

(٤) انظر: التعليقات والنوادر ١٩١٠:٤.

وبنو سعد أظآر[1] رسول الله ﷺ ، استرضعته فيهم حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شَجْنة بن ناصرة بن فُصيَّة بن عبد العزَّى بن سعد. وكانت زوجةَ الحارث بن عبد العزَّى بن رفاعة بن مِلَّان.

وإخوته من الرَّضاعة عبد الله، وأنيسة بنت الحارث، والشيماءُ التي كان رسول الله ﷺ قد عضَّها وهي تحمله، فلمَّا أسرها المسلمون أنبأتهم أنها أخت النبي ﷺ مِنَ الرَّضاعة فلم يصدقوها، ... فعنَّفوا عليها في السياق، فقالت للمسلمين: تَعْلَموا - والله - أني لَأخت صاحبكم مِنَ الرَّضاعة. فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ﷺ . قال ابن إسحق: فحدَّثني يزيد بن عبيد السعدي، قال: فلمَّا انتُهيَ بها إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله، إني أختك مِنَ الرَّضاعة، قال: «وما علامة ذلك؟» قالت: عَضَّةٌ عضَضْتَنيها في ظهري وأنا متوِّكَتُكَ - حاملتك على وركي، قال: فعرف رسول الله ﷺ العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخَيَّرها، وقال: «إنْ أحببت فعندي مُحَبَّة مُكرَّمة، وإن أحببت أن أمتعك» أي أعطيك ما يكون به الإمتاع، أي الانتفاع، «وترجعي إلى أهلك». فقالت: بل تمتعني وتردّني إلى قومي، فمتَّعها رسول الله ﷺ ، وردّها إلى قومها[2].

وقدِ افتخَر النبيُّ ﷺ برضاعته في بني سعد وتَرعْرُعِه في باديتهم، قال: «أنا أعْرَبُكم، أنا من قريشٍ، ولساني لسانُ بني سعدِ بن بكر»[3]. وكان تَرَعْرُعُه بينهم ورضاعته من حليمة السعدية مبعثًا لفخر بني سعد بذلك على سائر هَوازن.

---

(١) الظئر: العاطفة على ولدها المرضعة له من الناس وغيرهم.

(٢) سيرة ابن هشام ٢: ٤٥٨.

(٣) الجامع الصغير، حديث رقم ٢٦٩٦.

وكان من بني سعد من الولاة، شُريح بن عامر بن قَيْن، وهو الذي استخلفه خالد بن الوليد على (الخُرَيبة) بالبصرة عند توجُّهه إلى الشام[1]. ومنهم عُروة بن عطيَّة السَّعدي بن قين[2] الذي كان واليًا على اليمن، ومنهم عبد الملك بن يزيد السَّعدي الذي انتُدب لقتال أبي حمزة الخارجي[3]، وكانت لأبي وَجْزَةَ، شاعرنا أخبار معهم، على ما سنرى.

وذكر القلقشندي أن بني سعد افترقوا في الإسلام، فلم يَبْقَ لهم حيٌّ يُطْرَق، إلا فِرْقةٌ منهم في بلاد المغرب بنواحي (باجة) تعسكر مع جند السلطان[4]. وشايَعه على ذلك عمر رضا كحَّالة في «معجم قبائل العرب»، فنقل عنه قوله: «لم يَبْقَ لهم حيٌّ يُطْرَق»، وهذا يعني أن هذه القبيلة - في زمن القلقشندي - كانت مندثرة.

إلا أن الباحث عاتق بن غيث البلادي ردَّ هذه العبارة على المؤرخين، فقال في كتابه «معجم قبائل الحجاز»: «... وأطلقوا هذه الكلمة - يريد قولهم: لم يَبْقَ لهم حيٌّ فيُطْرَق - على كثير من قبائل الحجاز، كهذيل مثلًا وبني سعد بن بكر بن منصور... وهو وهَمٌ يَدْحَضُه الواقع، فلا زالت بنو سعد في ديارها الأصلية في قرن الحبَالَى - قرن المنازل - وجنوب الطائف في (بَسْل) و(مظلة) وغيرها. ولهم سَرَاة تعرف بهم اليوم، وهي ما كان يعرف بسَرَاة شبابة أو تجاورها»[5].

---

(١) جمهرة ابن الكلبي ٢: ٨٨.

(٢) نفسه ٢: ٨٨.

(٣) هو مختار بن عوف، أبو حمزة الخارجي (ت١٣٠ هـ)، قتله عبد الملك بن عطية السعدي بعد أن لحقه إلى مكة. انظر الكامل، حوادث سنة ١٢٨-١٣٠، والطبري حوادث سنة ١٣٠ هـ.

(٤) نهاية الأرب: ٢٩٠، ومعجم قبائل العرب: ٥١٤.

(٥) معجم قبائل الحجاز ٢: ٢٠٥، ٢٤٨.

أما سعد فتنقسم في أيامنا هذه إلى:

١ – الثُّبْتة: وهذه تنقسم إلى اللَّمْصة، والصُّريرات.

٢ – البطنين: وهذه تنقسم إلى النفعة وطفيح.

ولكلِّ بطن فروعٌ عديدة(١).

ومن أودية بني سعد «قرن الحبَالَى»، وهو وادٍ يجيء من السَّراة، وهو ما يعرف بـ(قرن المنازل). ومن مياههم: تَقْتَدُ(٢).

ومن رجالات سعد المعدودين(٣):

١ – أطّ بن أبي أطّ السعدي، وكان مع خالد بن الوليد ﵁، وإليه ينسب نهر «أط» في العراق.

٢ – أعبد بن فدكي، وكان مع خالد أيضًا في حروب الرِّدة وغيرها.

٣– الحارث بن عبد العُزَّى، زوج حليمة السعدية، ربيعة السعدية، وهو راوي حديث النبي ﷺ: «اللهم أعزَّ الإسلام بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب»(٤).

٤ – زهير بن صُرد السعدي.

٥ – شُريح بن عامر بن قين.

٦ – الضحاك بن عَرْفَجة السعدي.

٧– ضِمام بن ثعلبة، عبد الله بن أبي بكر.

(١) معجم قبائل الحجاز ٢ : ٢٤٨.

(٢) معجم البلدان ٤ : ٣١٣.

(٣) بنو سعد بن بكر، ص٩٩ وما بعدها.

(٤) الإصابة ١ : ٦٧٦ و ٦٧٧.

٨– عبد الله بن مبشِّر السعدي.

٩– عبد الله بن الحارث السعدي.

١٠ – عبد الملك بن عطية السعدي.

١١ – عُروة السعدي.

١٢ – محمد بن عَطيَّة السعدي.

١٣ – محمد بن عروة السعدي.

١٤ – أبو بَرْقان السعدي، وهو عمُّ النبي ﷺ مِنَ الرَّضاعة.

١٥ – أبو ثَرْوان بن عطية السعدي، وهو عم النبي ﷺ مِنَ الرَّضاعة أيضًا.

١٦– أبو صُحار السعدي، وهو الذي شهد حُنينًا مع المشركين ثم أسلم.

١٧– بشر بن جعفر السعدي.

وممن شُهر من نسائهم(١):

١ – آسية بنت الحارث، أخت النبي ﷺ مِنَ الرَّضاعة.

٢ – جدامة بنت الحارث، وهي أخت حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ.

٣– حُذافة بنت الحارث السعدية، أخت النبي ﷺ مِنَ الرَّضاعة.

٤ – حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ.

٥ – سلمى بنت أبي ذؤيب، أخت حليمة.

٦ – الشيماء بنت الحارث السعدية، وقد مرَّ ذكرها.

(١) انظر: بنو سعد بن بكر، ص ١١٥ وما بعدها.

أما من عُرف منهم مِنَ الشعراء فمنهم:

١ - أبو مهدي السعدي.

٢- أحمد بن الأعرج السعدي، شاعر إسلامي (ت ٥٦هـ)، روى له الهَجَريُّ قصيدة طويلة، منها قوله[١]:

أَلَا أيُّها القلبُ الذي هو هائمٌ ... بعصباء مغْتَــلُّ السِّقــام جــريحُ

٣- أبو الأحول السعدي، شاعر إسلامي (ت١٧٠هـ)، روى له الهَجَريُّ قصيدة يقول فيها[٢]:

يا لَلرجــال لصَبٍّ قلبُهُ عَمِدُ ... ومُقصَدٍ عالَ باقي صبرِه القَصَدُ

٤- مؤجِّن بن شَعْنَب العصامي السعدي، من شعره في جيرانٍ له:

أيا راعيَ الغـزلان بالشِّعْب ذي الرُّبـا

تحسسْ ولا تأمـنْ سـباعـًا ضـــواريا

٥- سليمان بن يحيى، ويعرف بابن أبي الزَّوائد السعدي، شاعر مُقِلٌّ كان يؤمُّ الناس في مسجد رسول الله ﷺ، وهو القائل[٣]:

إذا عَدَّتْ مناقبَها قريشٌ ... فإنَّك عامرُ بن أبي خُبيبِ

٦- يزيد بن عُبيد السعدي، المعروف بأبي وَجْزَة السعدي، وهو أشهر شعراء بني سعد وأغزرهم شعرًا وأعلاهم شاعرية.

*

(١) التعليقات والنوادر ٣: ٥١٤.

(٢) التعليقات والنوادر ٣: ٥١٥.

(٣) انظر: جمهرة نسب قريش ١: ٢٦٥، وبنو سعد بن بكر، ١٣٩.

١ - شعر ابن أبي الزَّوائد السَّعْدي[١]

قافية الباء

(١)

قال[٢]: [الوافر]

١- إذا عـــدَّتْ مناقبَهـــا قريشٌ ... فإنَّـــك عـامرُ بن أبي خُبَيبِ[٣]

٢- أبوكَ العـــائذُ[٤] المهديُّ حَـبْرٌ ... وأمُّـك نِعْـمَ والــدةُ النَّجيبِ

٣- فجئتَ مهـذَّب الأعْراقِ[٥] محضًا ... سُلالَ[٦] الصَّفْوِ من كرم قَطيبِ[٧]

التخريج: جمهرة نسب قريش ٢٦٤.

(١) هو: سليمان بن يحيى بن زيد بن معبد بن أيوب، من بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، شاعر مقلٌّ من مخضرمي الدولتين. كان يؤمُّ الناس في مسجد رسول الله، ﷺ. ذكره صاحب «الأغاني» بكنية ابن أبي الزوائد، ثم قال بعد ذكر نسبه: «ويقال ابن أبي الزوائد أيضًا»، لعلَّه خطأ من النُّسَّاخ، ولعلَّ الصواب أن تكون: (ويقال له: ابن ذي الزوائد)؛ لأنه ذكره قبل باسم (ابن أبي الزوائد)، وإلَّا لم يكن لقوله (أيضًا) معنى مفهوم.

(٢) جاء في نسب قريش/ ٢٦٤: «وحدَّثني رجل قال: حدثنا الزبير قال: وحدَّثني رجلٌ قال: حدَّثني إسحاق بن محمد الفَرْويُّ قال: حدَّثنا مالك بن أنس قال: كنت يومًا مع عامر بن عبد الله بن الزبير، ولم أرَ مثله في زمانه أكثر فضلًا، فوقف عليه ابن ذي الزوائد السعدي في المسجد فقال: [الأبيات]». نسب قريش/ ٢٦٤. وفي الأبيات سناد الحذو، وهو حركة الحرف الذي يسبق الردف بنوعيه، وسناد الحذو اختلاف حركة ما قبل الردف في البيتين.

(٣) أبو خُبَيْب: كنية عبد الله بن الزّبير.

(٤) العائذ: هو عبد الله بن الزبير ؛ لأنه عاذ بالبيت.

(٥) العرق: الأصل.

(٦) سُلال: مبالغة (سليل)، وهو الشَّراب الخالص من الكدر، وهو فعيل بمعنى (مفعول).

(٧) قطيب: الممزوج بالماء الصافي، وهو من قولهم: قطب الخمر يقطبها، وهي أكثر جودة.

قافية الثاء

(٢)

وقال[١]: [الوافر]

١- سَقَاني شربةً فسَكِرْتُ منهـا   أبـو الجـوَّاب صـاحبيَ الخبيثُ

٢- وعـاونَهُ أبـو أيُّـوبَ فيهـا   ومـن عـاداتِهِ الخُلُقُ الخَبيثُ

٣- فلمَّـا أنْ تمشَّت في عِظـامي   وهمَّـتْ وَثْبَـتي منهـا تَريثُ

٤- علمْتُ بأنَّني قـدْ جئتُ أمْـرًا   تسـوءُ به المقـالةُ والحديثُ

٥- فَدَعْهُم - لا أبا لك - واجْتَنِبْهُمْ   فـإنَّ خليطَهُـمْ لَهُـوَ اللَّويثُ

التخريج: الأغاني ١٤ : ١٢٧.

قافية الدَّال

(٣)

وقال: [مجزوء الكامل]

١- قطـع الصفـاء - ولم أكن   أهـلًا لـذاك - أبـو عبيده[٢]

٢- لا تحسبـنَّـك عـاقـلًا   فلأنـتَ أحمـقُ مـن حُمَيْده[٣]

التخريج: الأغاني ١٤ : ١٢٢.

(١) روى الزبير قصَّة الأبيات فقال: وأنشدني له أبو غسان محمد بن يحيى، وكان قد دخل إلى رجلين من أهل الحجاز يقال لأحدهما أبو الجوَّاب، والآخر أبو أيُّوب، فسقياه نبيذًا على أنَّه طريٌّ لا يُسْكِر، فأسكَرَهُ؛ فقال: [الأبيات].

(٢) كان أبو عبيدة بن عبد الله بن ربيعة صديقًا لابن أبي الزوائد، ثم انقطع ما بينهما لوشاية وصلت أبا عبيدة عنه، فهجره بسبب ذلك، فهجاه. [البيتان].

(٣) حميدة: امرأة كانت في المدينة معروفة بالحُمْق والرُّعونة حتى ضُرب بها المثل في ذلك. والمثل في: تمثال الأمثال/ ٢٠، ومعجم الأمثال ١/ ١٦١، برقم (٦٦٢)، ومصدره الأغاني ١٤/ ١٢٢.

قافية الذال

(٤)

وقال[١]: [الخفيف]

١- يا بنَ يحيى ماذا بدا لك ماذا   أمُقـامٌ أمْ قـدْ عَزَمْتَ الخِيـاذا

٢- فالبراغيثُ قـد تثـوَّر منهـا   سـامرٌ مـا نـلوذُ منهـا مـلاذا

٣- فنَحُـكُّ الجُـلُودَ طـورًا فتَـدْمَى   ونحـكُّ الصُّـدورَ والأفخـاذا

٤- فَسَقى الله طيبةَ الوبْـلَ سَحًّا   وسقى الكَرْخَ والصَّراةَ الرَّذاذا

٥- بلدةٌ لا ترى بهـا العـينُ يومًـا   شـاربًـا للنَّبيـذِ أو نبَّـاذا

٦- أو فتًى ماجنًا يرى اللهـوَ والبا   طِـلَ مجـدًا أو صـاحبًـا لوَّاذا

٧- هذه الذَّالُ فاسمعوها وهاتوا   شاعرًا قال في الرَّويِّ على ذا

٨- قالها شـاعِرٌ لَوَ انَّ القـوافي   كُنَّ صخْـرًا أطـارَهُنَّ جُـذاذا

التخريج: الأغاني ١٤ : ١٢٦.

(١) كان ابن أبي الزوائد وَفَدَ إلى بغداد في أيام المهدي، فاستوخمها، فقال يتشوَّق إلى المدينة ويخاطب أبا غسَّان محمَّد بنَ يحيى وكان معه نازلًا، فقال: [الأبيات]. الأغاني ١٤/ ١٢٦، الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٠١.

قافية الراء

(٥)

وقال[1]: [الكامل]

١- هـلَّا سـألتِ مَنَازِلًا بِغُـرارِ   عَمَّنْ عَهِـدْتُ به من الأحرارِ[2]

٢- أين انْتَأَوْا ونحاهُمُ صرْفُ النَّوى   عنَّـا وصَرْفُ مُقَحَّمٍ مِغْيَـارِ[3]

٣- كَرِهَ المُقـامَ وظَـنَّ بي وبأهلِها   ظَـنًّا فكان بنـا عـلى إضْرارِ

٤- عُدِّي رِجالَكِ واسْمَعِي يا هذِهِ   عَـنِّي مَقَـالةَ عـالمٍ مِفْخـارِ[4]

٥- سـأعُدُّ سـاداتٍ لنـا ومَكارِمـًا   وأُبُـوَّةً ليسـتْ عـليَّ بعَـارِ

٦- قَيْسٌ وخِنْـدِفُ والدايَ كلاهُما   والعَمُّ بَعْـدُ ربيعـةُ بنُ نزَارِ

٧- مَنْ مِثْـلُ فارِسنا دُرَيْدٍ فارسـًا   في كلِّ يـومِ تَعَـانُقٍ وكِرارِ[5]

٨- وبنـو زِيادٍ مَنْ لِقَـوْمِكِ مِثْلُهُمْ   أو مِثْـلُ عنترةَ الهِزَبْرِ الضَّاري[6]

٩- والحيُّ من سـعدٍ ذُؤابَةُ قَوْمِهِمْ   والفَخْرُ منهم والسَّنامُ الواري[7]

١٠- والمانِعونَ مِنَ العَدُوِّ ذِمارَهُمْ   والمُدْرِكُـونَ عَـدُوَّهم بالثَّـارِ

(١) كانت عند ابن ذي الزوائد امرأة أنصارية، فطال لبثها عنده حتّى ملّها وأبغضها، فهجاها بأبيات على روي اللام، ستأتي في موضعها، ففخرت عليه فقال لها: [الأبيات]. الأغاني ١٤/ ١٢٣-١٢٥.

(٢) غُرار، على وزن غراب: جبل في تهامة. معجم البلدان (غرار)، والقاموس المحيط (غرر).

(٣) انتأى: ابتعد. مقحّم: مرمي بلا روية. مغيار: كثير التغير.

(٤) مفخار: كثير الافتخار.

(٥) كِرار: الكرّ.

(٦) الهزبر: الأسد، والغليظ الضخم.

(٧) الذؤابة، من العز والشرف وكلّ شيء: أعلاه. السنام الواري: السمين المكتنز.

١١- والناكحـون بنـاتِ كلِّ مُتَوَّجٍ   يومَ الوَغَى غَصْبًا بلا إمهـارِ

١٢- وبنـو سُـلَيْمٍ نُكْلُ مَنْ عاداهُمُ   وحَيَـا العُفَـاةِ ومَعْقِـلُ الفُرَّارِ[1]

١٣- ليسوا بأنكاسٍ إذا حَاسَتْهُمُ الـ   ـمَوْتَ العُدَاةُ وصَمَّمُوا لِمُغَارِ[2]

التخريج: الأغاني ١٤ : ١٢٣-١٢٥.

قافية الطاء

(٦)

وقال[3]: [المتدارك]

١- أقـول وقـد صُفَّتِ البُطْـرُ لي   أَلِلْبُـطْـرِ أدخَـلَني عُطْعُطُ[4]

٢- فـإني امـرؤٌ لا أحـبُّ الزِّنَى   ولا يستـفـزُّني الـبَرْبَـطُ

٣- ولو بعضُهنَّ ابتغى صبْـوَتي   لخَـالَطَ هامَتَهـا المخْبَـطُ

٤- لَبِئسَ فِعـالُ امـرئٍ قـد قَـرَا   وهمَّـت عوارِضُـهُ تشـمَـطُ

٥- وما كنت مفـترشـًا جـارتي   وسـيِّـدُها نــائمٌ يضرِطُ

٦- أؤفرِغُ في جـارتي نُطْفـة   حـرامـًا كما يُفـرِغ المُسْعُطُ

التخريج: الأغاني ١٤ : ١٢٣.

(١) النُّكل: المنكّلون المغيظون أعداءهم. الحيا: العطاء والكرم. الفُرار: الذين يلجؤون إليهم.

(٢) أنكاس: جمع نِكس، وهو الضعيف والجبان. حاستهم: رمتهم بالحرب. المغار: الإغارة.

(٣) دخل ابن أبي ذي الزوائد على حماد بن عمران الطُّليحيِّ، وكان يلقَّب بـ (عُطْعُط)، وعنده قيان يتسمع إليهن الناس عنده، فرآهن شاعرنا، فقال [الأبيات].

(٤) عُطعُط: لقب حماد بن عمران الطليحي.

قافية اللام

(٧)

وقال[١]: [الكامل]

١- يا رملُ[٢] أنتِ الغـولُ بين رمالِ   لم تَظْفَـري بِتُـقًى ولا بجمـالِ
٢- يا رملُ لو حُدِّثْتُ أنَّكِ سَلْفَعٌ   شوهاءُ كالسِّعلاة بين سَعَالي[٣]
٣- ما جاء يطلبُكِ الرَّسولُ بخطبةٍ   منِّي ولا ضُمَّت عليك حِبالي
٤- ولقد نهى عنْكِ النَّصيحُ وقال لي: لا تقْـرَبَنَّ بذيَّـةً بعِيـالِ[٤]
٥- لَمَّا هـزَزْتُ مُهـنَّدي وقذفْتُـهُ   فيهـا، وقد أرهفْتُهُ بِصِقـالِ
٦- رَجَعَ المهنَّـد ما له من حِيـلةٍ   وهناك تصْعُبُ حِيـلةُ المحتالِ
٧- وكأنَّمـا أولجتُـهُ في قُـلَّةٍ   قد بُرِّدت للصَّـوم أو بُوقالِ[٥]
٨- ورأيت وجهًـا كاسفًـا متغيِّرًا   وحِـرًا أشقَّ كمِرْكن الغسَّـالِ[٦]
٩- ما كان أيرُ الفيـلِ بالغَ قَعْره   بتحـامُلٍ عنـه ولا إِدْخـالِ
١٠- ولقـد طعنتُ مَبـاهـا بسُـلاحها   فوجدتُ أخبثَ مسلحٍ ومَبالِ[٧]

التخريج: الأغاني ١٤ : ١٢٣.

---

(١) كانت عند ابن ذي الزوائد امرأة أنصارية، فطال لُبْثها عنده وملَّها فقال يهجوها: [الأبيات] الأغاني ١٤/ ١٢٣.
(٢) رمل: ترخيم (رملة)، وهي زوجة أنصارية كانت له حتى ملَّها.
(٣) سلفع: شوهاء. السعلاة: جمعها سعالي، وهي أخبث أنواع الغيلان.
(٤) البذيَّة: تخفيف (بذيئة).
(٥) الوقال: الكوز الذي لا عروة له.
(٦) المِرْكن: الوعاء الذي يغسل فيه الثياب.
(٧) السُّلاح: النَّجْو، والمَسْلَحُ: مكان خروجه. اللسان (سلح).

قافية الميم

(٨)

وقال[١]: [السريع]

١- يا ليت أنَّ العَـرَبَ استحلقوا   ريم الصُّهيبيِّـين ذاك الأجَـمْ
٢- وكان منهـم فـتزوَّجتُـهُ   أو كنت من بعض رجال العجمْ

التخريج: الأغاني ١٤ : ١٢٢.

(٩)

وقال[٢]: [الطويل]

---

(١) البيتان مما قاله في الجارية الصهيبيَّة السوداء التي كان يتعشَّقها.
(٢) روى أبو الفرج بسنده عن ابن دأب قال: «خرجت أنا وأخي يحيى وابن أبي السَّعلاء ومعنا مصعب بن عبد الله النَّوفليُّ وثابتٌ والزبير ابنا خبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، وابن أبي الزوائد السعدي، وابنُ أبي ذئب متنزهين إلى العقيق، وقاد سال يومئذٍ. إذ أتانا آت ونحن جُلوسٌ، فسألناه عن الخَبَرِ بالمدينة؟ فقال: وَرَدَ كتابُ أمير المؤمنين المنصور أنْ لا تتزوَّج منافيةٌ إلا منافيًّا. فقال ابنُ أبي ذئبٍ: إذنْ والله لا يخطُبُ قرشيٌّ إلا من لا يُحبُّها، ولا يرغب فيها ممن لا فَضلَ له عليها، وكان غيرَ حسن الرأي في بني هاشم. وتكلَّم ابنا خُبيبٍ بمثل ذلك، وقال أحدهما: إنَّ نَسَبَنا من بني عبد مناف قد طال، فأدالنا الله منهم. قال فغضب مُصعبٌ النَّوفليُّ وكان أحولَ فازدادت عيناه انقلابًا، فقال: أمَّا أنت يابن أبي ذئبٍ فوالله ما شرَّفتْكَ جاهليَّةٌ ولا رفعك إسلامٌ. فيقع في بال أحد أنك عُنيتَ بما جرَى. وأما أنتما يابْنَيْ خُبيبٍ فبُغْضُكما لبني عبد منافٍ تالدٌ موروثٌ، ولا يزالُ يتجدَّدُ كلَّما ذَكَرْتُمْ قَتْلَ الزُّبيرِ، وإنكم لَمِنْ طينتَيْنِ مختلفتَينِ: أمَّا إحداهما فَمِنْ صَفيَّة، وهي الطينة الأبطحية السَّنيَّة، تَنْزِعان إليها إذا تنافرتُما، وتفخَرانِ بها إذا افتخرتما، والأخرى الطينة العوَّاميَّة التي تعرفانها، ولو شئتُ أن أقولَ لقلتُ، ولكن صفية تَحْجُزُني، فأحْسِنا الشُّكْرَ لِمَنْ رَفَعكما، ولا تميلا عليه بمن وضعكما. فقالا له: مَهْلًا، فوالله لقديمُنا في الإسلام أفضلُ من قديمِكَ، ولَحَظُّنا فيه بالزبيرِ أفضلُ من حظِّكَ. فقال مصعب: والله ما تفخران في نسبكما إلا بعمَّتي، ولا تفضلانِ في دينكما إلا بابن عمِّي ﷺ، فمفاخره لي دونكما. ثم تفرَّقوا، فقال ابنُ أبي الزوائد: [الأبيات]). الأغاني ١٤ / ١٢٨-١٣٠.

١- لَعَمْرُكما يا ابْنَي خُبيبِ بن ثابتٍ   تجاوزتُما في الفخر جهْلًا مَداكُما

٢- وأنكرْتُما فضْلَ الذين بفضلهم   سَمَتْ بين أيدي الأكرمين يداكُما

٣- فإنّكما لم تعـرفا إذْ سَمَـوتما   إلى العـزِّ من آل النَّـبيِّ أباكُما

٤- ولم تعرفا الفضْلَ الذي قد فَخَرْتُما   فليس مِنَ العـوَّامِ حقًّا أتاكُما

٥- فلولا الكرام الغُرُّ من آل هاشمٍ   - فلا تجهلا - لم تدفعا من رماكُما

التخريج: الأغاني ١٤ : ١٣٠.

(١٠)

وقال: [المنسرح]

١- هـل نفسُك المستدامة السَّـدِمهْ   سـاليةٌ مـرَّة ومعـتزِمَهْ(١)

٢- عن ذكر خَوْدٍ قضى لها المِلكُ الـ   ـخالقُ ألا تُكنَّهـا ظُـلْمهْ(٢)

٣- كالشَّمْس في شَرْقِها إذا سَفَرتْ   عنهـا ومثـلُ المَهـاةِ مُلْتَثِمَهْ

٤- ما صـوَّرَ الله حـين صـوَّرَها   في سـائرِ النَّاسِ مثلَهـا نَسَمَهْ

٥- كلَّ بـلادِ الإلـهِ جئْتُ فَمَـا   أبْصَرْتُ شِبْهًا لها - وقدْ عَلِمَهْ -

٦- أنْثى من العـالمينَ تُشْبِهُهـا   عابسـةٌ هَـكَذا ومُبْتَسِـمهْ

٧- فتَّـانَةُ المُقْلتَيْنِ مُخْطَفَـةُ الـ   أحشاءِ منها البَنـانُ كالعَنَمَهْ(٣)

(١) السدمة: المهمومة.

(٢) الخود: الحسنة الخلق.

(٣) مخطفة الأحشاء: ضامرة الخصر. العنمة: واحدة العنم، وهي شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يُشَبَّه بها البنان المخضوب، أو أطراف الخرْنوب الشامي.

٨- إذا تَعـاطَتْ شـيئًا لتأخـذَهُ   قلْتَ غَزَالٌ يَعْطـو إلى بَرَمَهْ(١)

٩- يا هِنْـدُ يا هند نَوِّلي رجُـلًا   وكيفَ تنويلُ من سفكت دمَهْ

١٠- أو تدركي نفسَه فقد هلكتْ   أو ترحمـيه فمِثْلُكم رَحِمَـهْ

التخريج: الأغاني ١٤ : ١٢٠، ١٢٧.

قافية النون

(١١)

قال(٢): [المنسرح]

١- حُجَيْجُ أمسى جَدادُ حاجزةٍ   فليتَ أنَّ الجَـدادَ لم يَحِنِ

٢- وشـتَّ بَيْنٌ وكنْتِ لي سَكَنًا   فيما مضى كان ليس بالسَّـكَنِ

٣- قـد كان لي منـكِ ما أُسَرُّ به   وليتَ ما كانَ منـكِ لمْ يَكُنِ

٤- نَعِـفُّ في لهْـونا ويجْمَعُنـا الـ   ـمجلسُ بين العريشِ والجُـرُنِ

٥- يعجبُنا اللّهـوُ والحـديثُ ولا   نخـلِطُ في لهْـونا هَنًا بِهَنِ

٦- لو قدْ رحلْتُ الحمـارَ منكشفًا   لم أرَها بعـدها ولم تَرَني

التخريج: الأغاني ١٤ : ١٢١، ١٢٢.

(١) البرم: ثمر العِضاه.

(٢) كان ابن أبي الزوائد يعشق جارية سوداء للصهيبيِّين، نسبةً إلى صهيب بن سنان الرومي الذي سباه الرُّوم وهو صغير، ثم ابتاعته قبيلة كلب منهم، وقدمت مكَّة فاشتراه عبد الله بن جُدْعان وأعتقه، فأسلم وهاجر وشهد مواقع كثيرةً، وتوفي سنة ٣٨ هـ، وكان ابن أبي الزوائد يتردَّد عليها وهي في (حاجزة)، فلمَّا حان وقت جداد النَّخل قال (الأبيات). فقال له أبو محمد الجحميُّ: إنَّ الشُّعراء يذكرون في شعرهم الإبل والنَّجائبَ، وأنت تذكر أنَّك رحلت حمارًا، فقال: ما قلتُ إلَّا حقًّا، والله ما كان لي شيءٌ أرحله غيره. (الأبيات في: الأغاني ١٤/ ١٢١ و ١٢٢).

٢- شعر (زيد بن صُحَارٍ السَّعْدي)[١]

(١٢)

[الوافر]

١- ألا هـل أتاك أنْ غلبتْ قريشٌ ... هَوازنَ والخطـوبُ لهـا شروطُ
٢- وكنَّـا يا قُريشُ إذا غَضِبْنا ... يجيء مِنَ الغضـاب دمٌ عبيطُ[٢]
٣- فأصبحنـا تسـوِّقنـا قريشٌ ... سياقَ العـير يَحْـدُوها النَّبيطُ[٣]
٤- فلا أنا إن سلمتُ الخَسْفَ آبٍ ... ولا أنـا إن ألـينُ لهـم نشيطُ[٤]
٥- سيُنْقَـل لحمُهـا في كلِّ فـجٍّ ... وتكتب في مسامعها القُطوطُ[٥]

التخريج: سيرة ابن هشام ٢: ٤٧٦، طبقات ابن سعد ١: ٢٨٨.

(١) لم أقف له على ترجمة كافية، إلا ما جاء في السيرة النبوية لابن هشام أنه:زيد بن صحار، أبو ثواب، أحد بني سعد بن بكر.
(٢) العبيط: الطري.
(٣) النبيط: يريد بها العبيد الذين لا يحسنون غير الرعي. والنبيط والنَّبَط: سكان سواد العراق قديمًا.
(٤) الخَسف: الظُّلم. الآبي: الرافض والمعترض.
(٥) القُطوط: جمع (قَطٍّ)، وهو الصك أو كتاب المحاسبة.

٣- شعر أبي الأحول السَّعديِّ[١]

(١٣)

[الطويل]

١- ألا أيُّها القلْبُ الذي هو هائِمٌ ... بِعَصْماءَ مغْتَـلُّ السَّقـامِ جـريحُ
٢- أَمِنْ أجْلِها يَعْرُوكَ باللَّيلِ هَفْوَةٌ ... يَمُوتُ لها مِنْكَ الصَّدَى ويُرِيحُ[٢]
٣- كَما لَعِبَتْ مَكْتُـومَةٌ هَجَـرِيَّةٌ ... بِذِي اللُّبِّ صَهْباءُ الزُّجاج صَريحُ[٣]
٤- ولكنَّما اقْتـادتك بالدَّلِّ والمُنى ... إذِ العيش حُلْوٌ والشَّبابُ قريحُ[٤]
٥- وبالقَوْلِ لا يعْلَمْ بسرِّكَ مُخْبِرٌ ... ولا يَنْتَحِ الأفعَـالَ مِنْكَ مُبيحُ
٦- وليدًا إلى أنْ صَحَوْتَ وأوضَحتْ ... مِنَ الخُصَلِ اللاتي فَرقْتَ صُفُوحُ[٥]
٧- فمـا روضـةٌ في مُقْصِرٍ عَرَبيَّةٌ ... أُدِبَّ إليهـا جدْوَلٌ وسُيُوحُ[٦]

(١) هو أحمد بن الأعرج، انظر: التعليقات والنّوادر ١/ ٧٦.
قال حمد الجاسر - رحمه الله - : «لم أرَ لهذا الشاعر ذكرًا عند غير الهَجَري، ولم أعرف شاعرًا سعديًّا يسمَّى أحمد سوى «أحمد بن جندل». وهذا أورد له صاحبُ اللِّسان رجزًا في رسم «معد».
هو أحمد بن الأعرج (أبو الأحول السَّعديُّ) من بني جابر بن رِزام من سَعْدِ ناصرةَ، حَضَنَةِ رسول الله ﷺ . ذكره الهجري بكنية (ابن الأحول) - ٢١٦ و ٤٠٤ هـ، وأورد بيتًا من القصيدة الأولى، وقد نَعَتَهُ بـ (ابن الأحول) وهو في أول القصيدة الثانية (أبو الأحول). وأرى أنه وقع تصحيف في إحدى كلمتي (ابن) و(أبي)، والمخطوطة لا يعتمد على كل ما ورد فيها، فهي غير مصحَّحة ولا مقابلة بأخرى، وقد وردت كلمة (أبو الأحول) مرَّة واحدة، وابن الأحول مرَّتين، - ٢١٦ و ٤٠٤ هـ.
(٢) يعروك: ينتابك ويصيبك. الهفوة: الغفلة.
(٣) الهجرية: منسوبة إلى هجر بلد في اليمن.
(٤) قريح: جريح.
(٥) صُفوح: جوانب.
(٦) أُدِبَّ جاء.

٨- تُثَنّي ذُرى ريحـــانِها عَلَوِيَّةٌ   أربَّتْ وأعقـــابُ ا..... وحُ[١]

٩- بأطيبَ من عصْماءَ وهْنًا إذا الرُّؤى   كَذَبْنَكَ عنهـــا والمر..... ح

١٠- وعَصْماءُ صَمًّا قـــدْ يُلِمُّ خَيالُها   بسُقْمٍ وهل يَهْدي السِّقامَ نَصيحُ

١١- لقد هَجَرَتْ عصْماءُ لَوْ أَنَّ حُبَّها   أَراحَ بَنَاتِ الصَّدْرِ مِنْه مُريحُ

١٢- وَعَصْماءُ ما تزْدادُ إلا مَلاحَةً   وإنْ عُمِّرَتْ ما كان عُمِّرَ نُوحُ

١٣- ألا طَرَقَتْ عصْماءُ وَهْنًا ولِلصَّدى   غِناءٌ لهت عنّي.............[٢]

١٤- فَقُمْتُ كأنّي في أراجيحَ من كرى   تُطاوِحُني أشطانُها..........[٣]

١٥- وقُمْتُ مَرُوعًا للخيالِ كأنّني   منَ الأهْلِ والمالِ التِّلاد........

١٦- ونؤتُ على ســاقٍ كأنَّ عِظَامَها   [يُخالِطُها] صافٍ أصمُّ ذَريحُ[٤]

١٧- فلَمْ أرَ إلا نِضـــوةً شجريَّةً   رجيعَ سِـــفارٍ نُعِّلَتْ سَريحُ[٥]

١٨- ورَحـــلًا وأنساعًا قواترَ فوْقَها   وأقرابُهـــا من بين ذاك تَلُوحُ[٦]

١٩- ومُلْقى يمـــانٍ ضاجَعَتْهُ مـــرِنَّةٌ   من النَّبْعِ سَهْواءُ الخِطَامِ طَروحُ[٧]

٢٠- وذاتَ شَبًا أرْياشُـها مُضْرَحيَّةٌ   وســـائرُها حجْريَّةٌ وقُدُوحُ[٨]

(١) في رواية الدبّاني: «فما روضة في مُكرم...». أربّت: زادت.
(٢) العنْس: الناقة القوية.
(٣) تُطاوحني: تتجاذبني. الأشطان: جمع (شَطن)، وهو الحبل الذي تربط به الدلو. الرّيح: الصافي.
(٤) نؤت: تحاملت على نفسي في القيام. ضذش.
(٥) نِضوة: جمع (أنضاء)، وهي حديدة اللجام. السريح: المسرّح.
(٦) الأنساع: جمع نِسع، وهو سَير تشد به الرحال. القواتر: المشدود بعضها إلى بعض. الأقراب: الخواصر، ومفرده: قُرُب.
(٧) المُرِنَّة: القوس المشدودة لأنها ترن عند الرمي. السهواء: فرس لأبي الأفوه الأودي، سميت بذلك للين سيرها. الخِطام: الوتر المعلق بالقوس. الطروح: الكثيرة الرمي.
(٨) الشبا: الحد. المُضرحيَّة: سهامها طويلة، وتُشبه بالمُضرحي، وهو الصقر الطويل الجناح. الحجْرية: منسوبة إلى (حَجْر) موضع لبني سُليم.

٢١- إلى غَرْزِ قَبّاءِ الحشا في وظيفِها   طِماحٌ، وفي الهادي الأشمِّ جُنُوحُ[١]

٢٢- إذا وَخَدَتْ فالرِّجْلُ منها حليفةٌ   وفي يدها إرســـالةٌ وشُبُوحُ[٢]

التخريج: التعليقات والنوادر ٥٢٣.

(١٤)

وقال: [البسيط]

١- يا لَلرِّجالِ لِصَبٍّ قَلْبُهُ عَمِدُ   ومُقْصَدٍ عالَ باقي صبرِهِ القَصَدُ[٣]

٢- مَا عِنْدَهُ عَزْمُ صَبْرٍ يَسْتَعِينُ بِهِ   على فِراقِ الأُلى بَانُوا ولا جَلَدُ

٣- تُثْني له عالِقَ الأسقامِ مَنْزِلَةٌ   قَفْرٌ يُغَرِّدُ فيها الصُّبَّرُ... الصُّرَدُ[٤]

٤- أوْدَى بأطْلالها واهِيْ الكُلَى هَزِمٌ   وجَائِلٌ مِنْ سَحِيلِ المُورِ يطَّرِدُ[٥]

٥- كأنَّ.... في الأطلالِ لَمْ يَذَرا   منها بَيَانًا بَلَى هابٍ ومُنْتَضِدُ[٦]

٦- ومُلْبِدٌ كَهِلالِ الشَّهْرِ عَوَّجَهُ   أيْدي الخَوَادمِ عَمْدًا وَهْوَ مُلْتَبِدُ[٧]

٧- تِلْكَ المَساكِنُ أمْسَتْ بَعْدَ ساكِنِها   قَفْرًا بِهَا لِجَوازي الوَحْشِ مُتَّرَدُ[٨]

٨- وَقَدْ نَرى أَهْلَ لَيلى سَاكِنِينَ بها   والدَّهْرُ إذْ ذَاكَ لا مُرٌّ ولا جَحِدُ

(١) القبّاء: العالية. الوظيف: الساق من الخيل والإبل وغيرها. الهادي: النَّصل. الطماح: النّشوز.
(٢) الوخد: المشي الليّن. السبوح: الامتداد.
(٣) العَمِد: المحب. مُقصد: مظلوم. عال: مال عن الحق. القَصد: الظلم.
(٤) الصُّرد: نوع من الطيور يغرد وهو معلق رجليه ورأسه إلى أسفل.
(٥) الكُلى جمع كُلية، وهي السحابة. الهزم: الدائم المطر. الجائل: الحصى المتطاير. السّحيا: الحبل المفتول بقوة. المور: الاضطراب.
(٦) الهابي: الغُبار، أو هو شيء شبيه بالدخان. منتضد: متراكب بعضُه فوق بعض.
(٧) مُلتبد: متراكب.
(٨) الجوازي: العطش من الحيوان. متَّرد: مورد تقصده.

٩- أيَّامَ تَسْبِيكَ لَيْلى وَهْيَ ناشِئَةٌ ... مِنْها بنَحْرٍ بِهِ اليَاقوتُ والفُرُدُ(١)

١٠- وبارِدِ الظَّلْمِ رَفَّافٍ عَوارِضُهُ ... كَأنَّما هُوَ مِنْ أنيابِها البَرَدُ(٢)

١١- وفاحِمٍ رَجِلٍ وَحْفٍ ضَفائِرُهُ ... كَالكَرْمِ نَعَّمَهُ مِنْ مائِهِ رَغَدُ(٣)

١٢- يا لَيلَ ما لَكِ لا تَجْزِينَ ذا كَلَفٍ ... قَدْ شَفَّهُ مِنْ هَواكِ الغُلُّ والفَنَدُ(٤)

١٣- نَشْكو إلى اللهِ أنَّا لا نُصاقِبُكُمْ ... ولا يزالُ على أبْوابِكِ الرَّصَدُ(٥)

١٤- لَعَلَّ نَفْسَكَ بَعْـدَ النَّأْيِ لاقِيَةٌ ... لَيْـلى وبَعْـدَ الظِّما بالماءِ تبتَرِدُ

١٥- أفايتُ يَا لَقَوْمي عُصْبَتي بِدَمي ... مَنْ لَيْسَ لي عِنْدَهُ عَقْلٌ وَلا قَوَدُ(٦)

١٦- هَيْفاءُ لَفَّاءُ مَهْضومٌ مُوَشَّحُها ... خَريدَةٌ رُؤْدَةٌ أَتْرابُها خُرُدُ(٧)

١٧- كأنَّمـا بادَلَتْ بِالجيـدِ جـازِيَةً ... والطَّرْف مكْحولَةً أخلى لَها الجَرَدُ(٨)

١٨- تَرْتادُ حَـوْلَ طِـلًى طِفْلٍ ويَرقُبُهُ ... وَبَّاصَةُ المَتْنِ في أحْشائِها.... د(٩)

١٩- لَمْ يَثْنِ مِنْ سِرْبِها سِرْبٌ تُحاذِرُهُ ... وَلَمْ يَرُعْها بِزَجْرٍ فِتْيَةٌ رَصَدُ(١٠)

التخريج: التعليقات والنوادر ٧٦.

(١) الناشئة: الجارية التي جاوزت حدَّ الصغر. الفُرُد: النفيسة.
(٢) الظَّلْم: ماء الأسنان وهو السواد داخل عظم السن من شدة البياض. الرفَّاف: البراق المومض.
(٣) الفاحم: الأسود من الشعر. الرجل: الممشط المرجَّل. الوَحف: الشعر الكثيف الأسود.
(٤) الغُلُّ: القيد. الفند: الكذب.
(٥) نُصاقبكم: نواجهكم، والمصاقبة: المواجهة. الرَّصد: الراصدون.
(٦) أفأيت: أوقعت وحمَّلت قومي دية دمي. العَقل: العِقال الذي يربط به البعير. القود: الدية.
(٧) الموشَّح: موضع الوشاح من المرأة. الخريدة: البكر التي لم تمسس، وهي المرأة الخَفِرة الحيية.
(٨) الجازية: العطشى. الجَرَدُ: الفضاء الذي لا نبات فيه.
(٩) الطِّلى: ولد الشاة. وبَّاصة: نشيطة.
(١٠) السِّرب: الجماعة من الطير وغيره. الرّصد: الراصد الذي يتربص بالفريسة.

٤- شعر الشَّيْماء السَّعْديَّة

قافية الدال

(١٥)

قالت(١): [الرجز]

يا ربَّنـا أبْقِ أخي مُحَمَّـــــدا ... حتَّى أراهُ يافعـــًا وأمْـــــردا

واكْبِتْ أعاديَه معـــًا والحُسَّـدا ... وأعْطِـهِ عِـــزًّا يـــدومُ أبَدَا

التخريج: سبل الهدى والرشاد ١ : ٤٦٤.

قافية الراء

(١٦)

وقالت: [الرجز]

١- محمَّـــــــدٌ خـــيرُ البشـــرْ ... ممـن مضى ومَـــنْ غَـــبَرْ

٤- مَن حَـجَّ منهــمْ واعتـــمَرْ ... أحسـنُ من وجْــهِ القمــرْ

٦- مــن كـــلِّ أنْـــثى وذَكَـــرْ ... مـن كلِّ مشبـــوبٍ أغـــرّ

٨- جنَّبـــني اللهُ الغِــــــيَرْ ... فيــه وأوضِـــحْ لي الأثـــرْ

التخريج: سبل الهدى والرشاد ١ : ٤٦٤.

(١) جاء في كتاب «سبل الهدى والرَّشاد» ١/ ٤٦٤: «قال في كتاب «التَّرقيص»: إنّ الشَّيماء كانت ترقِّص رسول الله، ﷺ وتقول [الأبيات]».

قافية الميم

(١٧)

وقالت: [الرجز]

هـذا أخٌ لي لم تَلِـدْهُ أُمِّـي ... وليس منْ نَسْـلِ أبي وعمِّي

فديتُـهُ من مُخْـولٍ مُعِمِّ ... فأنمِهِ اللّهمَّ فيمـا تُنْمِي(١)

التخريج: سبل الهدى والرشاد ١ : ٤٦٤.

٥- مؤجِّن بن شَعْنَب السَّعْديُّ(٢)

(١٨)

[الطويل]

أيا راعيَ الغزلانِ بالشِّعْبِ ذي الرُّبا ... تحسَّسْ ولا تأمنْ سباعًا ضَواريَا

التخريج: التعليقات والنوادر ٨٧٦.

(١٩)

٦- خَدِيج بن العَوْجاء النَّصْريُّ(٣)

قال: [الطويل]

لمـا دنونا من حُنَـينَ ومائهِ ... رأينـا سوادًا منكرَ اللّونِ أخْصفا

بمَلمومةٍ شهبـاءَ لو قَذَفوا بها ... شماريخَ من عُزوى إذن عادَ صَفْصَفا

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٤٧.

---

(١) المُعِمّ المُخول: المشتهر الأعمام والأخوال.

(٢) لم أقف له على ترجمة، ولم أقف له إلا على هذا البيت.

(٣) لم أقف له على ترجمة.

(٢٠)

٧- شدّاد بن عارض الجُشَميُّ(١)

قال: [البسيط]

لا تَنْصُروا اللّاتَ إنَّ اللهَ مُهْلِكُها ... وكيف يُنْصرُ مَنْ هُوَ ليس ينتصرُ

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٨١.

(٢١)

٨- ضَمْضَمُ بنُ الحارث(٢)

[الكامل]

١- أبلغْ لديك ذوي الحلائل آيةً ... لا تأمننَّ الدهـرَ ذات خِمارِ

٢- بعـد التي قالت لجـارة بيتها ... قد كنتِ لو لبثَ الغزيُّ بدارِ

٣- لمـا رأت رجـلًا تسفَّع لونه ... وغرُ المصيفة والعِظـام عواري

٤- مُشط العظـام تراه لآخر ليله ... متسربلًا في دِرْعِـه لغـوار

٥- إذ لا أزال على رِحـالة نَهْدةٍ ... جرداء تُلْحِق بالنِّجـاد إزاري

٦- يومًا علـى أثر النِّهـاب وتارةً ... كُتبت مُجـاهدة مع الأنصار

٧- وزُهـاء كل خميـلة أزهقتها ... مهـلًا تمهّـله وكل خبـار

٨- كي ما أغـيِّرَ ما بها من حاجة ... وتَـودُّ أني لا أؤوب فجـارِ

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٧٠.

---

(١) لم أقف له على ترجمة. والبيت من قصيدة قالها في مسير رسول الله إلى الطائف. انظر: سيرة ابن هشام ٤٩٢.

(٢) كانت ثقيف قد أصابت كنانة بن الحكم بن خالد بن الشريد، فقتل به محجنًا وابن عمٍّ له وهما من ثقيف. السيرة النبوية٢/ ٤٦٩.

(٢٢)

قال: [الطويل]

١- نحنُ جلبْنا الخَيْلَ من غير مَجْلَبٍ ... إلى جُرشٍ(١) من أهل زيّان(٢) وفم(٣)
٢- نُقتِّلُ أشبالَ الأُسودِ ونبتغي ... طواغيَ كانت قبلنا لم تُهدَّمِ(٤)
٣- فإن تفخروا بابن الشَّريد فإنّني ... تركتُ بِوَجٍّ مأتمًا بعد مأتمِ(٥)
٤- أبأتُهما بابن الشريد وغرَّهُ ... جوارُكُمْ وكان غيرَ مذمَّمِ(٦)
٥- تُصيبُ رجالًا من ثقيفٍ رماحُنا ... وأسيافُنا يَكْلِمْنَهُمْ كلَّ مَكْلَمِ(٧)

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٧٠-٤٧١.

(٢٣)

٩- عطيّة بن عُفيف النَّصْريُّ(٨)

قال: [الوافر]

١- أفاخرةٌ رِفاعةُ في حُنينٍ ... وعباس بن راضعة اللِّجابِ ؟

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٦٠.

(١) جرش: من مخاليف اليمن من جهة مكة.
(٢) زيان: اسم جبل.
(٣) الفم: موضع.
(٤) طواغي: جمع طاغية، وأراد بها هاهنا البيوت التي كانوا يتعبدون فيها في الجاهلية ويعظمونها سوى البيت الحرام.
(٥) وجٌّ: موضع بالطائف. والمأتم: جماعة النساء يجتمعن في الخير والشر، وأراد به هنا اجتماعهن في الحزن.
(٦) أبأتهما بابن الشريد: جعلتهما بواء أو سواء به، أي قتلتهما به.
(٧) يكلمنهم: يجرحنهم.
(٨) لم أقف له على ترجمة.

(٢٤)

١٠- كنانة عبد يَالَيلَ بن عمرو بن عُمير

قال: [الطويل]

١- من كان يَبْغينا يُريد قتالَنا ... فإنا بدارٍ مَعْلَمٍ لا نَريمها
٢- وجدنا بها الآباء من قبل ما ترى ... وكانت لنا أطواؤها وكُرومُها
٣- وقدْ جرَّبَتْنا قبلُ عمرُو بنُ عامرٍ ... فأخبرها ذو رأيِها وحليمُها
٤- وقد علمت إنْ قالتِ الحقَّ أنّنا ... إذا ما أبتْ صُعْرُ الخُدودِ نُقيمُها
٥- نُقوِّمها حتّى يلينَ شَريسُها ... ويُعرفُ للحقِّ المبين ظَلومُها
٦- علينا دِلاصٌ من تُراثِ مُحَرِّقٍ ... كلون السماء زيَّنتها نُجومُها(١)
٧- نُرفِّهُها عنّا ببيضٍ صوارمٍ ... إذا جُرِّدت في غمرة لا نُشيمُها

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٨١.

(٢٥)

١١- مالك بن عوف النَّصري(٢)

قال: [الرجز]

١- أَقْدِمْ مُحاجُ إنَّهُ يومٌ نُكُرْ ... مِثْلي على مِثْلِكَ يَحْمي ويَكُرّ(٣)
٢- إذا أُضِيعَ الصَّفُّ يومًا والدُّبُرْ ... ثُمَّ احزأَلَّتْ زُمَرٌ بعد زُمَرْ(٤)

(١) انظر: المحب و المحبوب و المشموم و المشروب ٤/ ٧٧.
(٢) لم أقف له على ترجمة، والأبيات في الاعتذار عن فراره.
(٣) محاج: اسم فرس مالك بن عوف.
(٤) احزألت: ارتفعت. وزمر: جماعات.

٣- كتـائبُ يكلُّ فيهـنَّ البَصَرْ ... قد أطْعُنُ الطَّعْنَةَ تقْذي بالسُّبُرْ(١)

٤- بعـين يُذمُّ المستكينُ المنجَحِرْ ... وأطعنُ النَّجْـلاء تعْوِي وتهِرّ(٢)

٥- لها في الجـوْفِ رَشَاشٌ منهمِرْ ... تفْهَق تاراتٍ وحينـاً تنفجِرْ(٣)

٦- وثعلبُ العـاملِ فيها مُنْكسِرْ ... يا زيدُ يا بن هَمْهمٍ أين تفـرّ(٤)

٧- قد نفِدَ الضِّرْسُ وقد طال العُمُرْ ... قد علم البيضُ الطويلاتُ الخُمُرْ(٥)

٨- أنِّي في أمثـالها غـيرُ غَمِرْ ... إذْ تُخْرجُ الحاصنُ من تحت السُّتُرْ(٦)

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٤٦.

(٢٦)

وقال: [الرجز]

١- أقْـدِمْ مُحـاجُ إنَّها الأساوره ... ولا تَغُرَّنَّك رِجْـل نادره(٧)

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٤٨.

---

(١) يكلُّ فيهنَّ البصر: يعيا عن إدراك نهايتها لكثرة عددها. والسبر: جمع سيار، وهو الفتيل يسبر به. وتقذى يقال: قذت العين تقذى (من باب رمى) قذيًا وقذيانًا قذت بالغص والرمص: ومعنى تقذى بالسير: تقذف بها لكثرة ما يندفق منها من دم ونحوه.

(٢) المستكين: الذليل الخانع. والمنجحر: المتستر في جحره، والمراد من اعتصم بمكان. والنجلاء: الطعنة المتسعة. وتعوي وتهر: أي التي يسمع لخروج الدم منها صوت كالعواء والهرير.

(٣) الرشاش: ما يخرج من الدم متفرقًا. ومنهمر: مصب. وتفهق: تنفتح. وتنفجر: يسيل منها الدم.

(٤) الثعلب: ما دخل من عصا الرمح في السنان. والعامل: أعلى الرمح.

(٥) نفد الضرس: يريد أنه كبرت سنه حتى ذهبت أسنانه، فهو محتنك مجرب. والخمر: جمع خمار، وهو الثوب تغطي به المرأة رأسها.

(٦) الغمر: بفتح فكسر أو بفتحتين (وفيه لغات أخرى): الذي لم يجرب الأمور.

(٧) الأساورة: جمع أسوار: (بضم الهمزة وكسرها) وهو قائد الفرس، وقيل هو الجيد الرمي بالسهام، وقيل هو الجيد الثبات على ظهر الفرس. ونادرة: أي قد ندرت وانقطعت وبعدت.

(٢٧)

وقال: [الوافر]

١- ولولا كَرَّتان على مُحَـــاج ... لضاقَ على العضاريط الطَّريقُ(١)

ولولا كرُّ دُهمـــانَ بن نصرٍ ... لدى النَّخلات مُنْدفَعَ الشَّديقِ(٢)

لآبت جعـفـــرٌ وبنو هلالٍ ... خزايا مُحْقِبين عـلى شُقوقِ(٣)

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٥٥.

(٢٨)

وقال: [الكامل]

١- مَنَعَ الرُّقادَ فما أُغَمِّضُ ساعةً ... نعَمٌ بأجزاعِ الطريق مُخَضْرَمُ(٤)

٢- سائلْ هوازِنَ هلْ أضُرُّ عدوَّها ... وأُعِـينُ غارمَهَا إذا ما يغـرَمُ

٣- وكتيبةٍ لَبَّسْتُهـــا بِكَتيبةٍ ... فئَتين منها حـاسِـرٌ ومُـلأَّمُ

٤- ومُقَدَّمٍ تَعْيا النُّفوسُ لضيقه ... قدَّمتُهُ وشُهُـــودُ قوميَ أعْلَمُ

٥- فوردتُه وتركْتُ إخـــوانًا له ... يَردون غَمْـــرته وغمرته الدَّمُ

٦- فإذا انجـلت غَمَراتُه أوْرثْنَني ... مَجْدَ الحيـــاةِ ومجدَ غُنْمٍ يُقسمُ

٧- كلفتمـــوني ذنبَ آلِ محمَّـــدٍ ... واللهُ أعلمُ مَنْ أعــقُّ وأظلمُ

٨- وخذلتموني إذْ أقاتلُ واحـــدًا ... وخذلتموني إذ تقـــاتل خَثْعَمُ

---

(١) مُحاج: اسم فرس مالك. العضاريط: جمع عُضْروط، وهو الخادم.

(٢) الشديق: وادٍ في الطائف أو مخلاف من مخاليفها.

(٣) محقبين: مردفين للمهزومين منهم. الشقوق: المشقَّة.

(٤) النعم: الإبل، أو كل ماشية أكثرها الإبل. وأجزاء الطريق: جمع جزع، وهو ما انعطف منه. ومخضرم: صفة النعم، وهو الذي قطع من أذنه ليكون ذلك علامة له.

٩- وإذا بَنَيتُ المجدَ يهْدم بعضُكم ... لا يستــوي بانٍ وآخــرُ يهدِمُ

١٠- وأقبَّ مُخْمـاصِ الشِّتاءِ مسارعٍ ... في المجــد ينْمي للعُلى مُتكَرِّمُ

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٧٤.

(٢٩)

١٢- قال رجل من بني جُشَم بن معاوية يرثي العلاء وأوفى ابنَيْ الحارث:

[المتقارب]

١- إنَّ الرَّزيةَ قَتْـلُ الـعـــلاءِ ... وأوفى جميعًـا ولم يُسْـــنَدَا[1]

هُمـا القـاتِلانِ أبـا عـامـرٍ ... وقــدْ كان ذا هَـبَّــةٍ أربـدا[2]

همـا تركـاه لـدى مَعْـــرَكٍ ... كأنَّ عـلى عِطْفـه مُجْسَـدا[3]

فـلم تـرَ في النَّــاس مثليهمـا ... أقــلَّ عِثــارًا وأرمـى يــدا

التخريج: سيرة ابن هشام ٢ : ٤٧٤.

*

(١) لم يسندا: لم يدركا وبهما رمق، فيسندا إلى ما يمسكهما.

(٢) ذا هبة: يعني سيفًا ذا هبَّة؛ وهبَّة السيف اهتزازه. الأربد: الذي فيه ربد، أي طرائق من جوهر.

(٣) المعرك: موضع الحرب. والمجسد: الثوب المصبوغ بالجساد، وهو الزعفران.

أهم المصادر والمراجع

- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق مجموعة من الأساتذة، نسخة مصورة، بيروت، مؤسسة جمال الدين للطباعة والنشر العربية.
- بنو سعد بن بكر: تركي بن مطلق القدَّاح، مرامر للطباعة والنشر، الرياض، ٢٠٠٣.
- التعليقات والنوادر: أبو علي الهَجري، حققه حمد الجاسر، ط١، الرياض، ١٩٩٣.
- الجامع الصغير: جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.
- جمهرة النسب: ابن الكلبي، تحقيق محمد فردوس العظم، ومحمود فاخوري، بيروت،دار اليقظة العربية.
- جمهرة نسب قريش: الزبير بن بكار، شرحه وحققه محمود محمد شاكر، أشرف على طبعه حمد الجاسر، مطبوعات مجلة العرب، ط٢، الرياض، ١٩٩٩.
- سُبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، حققه د. مصطفى عبد الواحد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٧.
- السيرة النبوية: ابن هشام، حققها مصطفى السقا وزميلاه، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.
- القاموس المحيط: الفيروزآبادي، بيروت، دار العلم للملايين.
- مراصد الإطِّلاع: صفي الدين البغدادي، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار إحياء الكتب.
- معجم البلدان: ياقوت الحموي، بيروت، ١٩٥٩، دار صادر.
- معجم الشعراء في لسان العربي: د. ياسين الأيوبي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢، دار العلم للملايين.
- معجم شواهد العربية: عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٧٣، مكتبة الخانجي.
- معجم قبائل العرب: عمر رضا كحّالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨، مؤسسة الرسالة.
- معجم ما استعجم: البكري، تحقيق مصطفى السقا، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، عالم الكتب.
- معجم معالم الحجاز: عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للنشر، ط١، ١٩٧٩.
- وفاء الوفا: نور الدين السمهودي، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤.

* * *

ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» والمنهج العلمي لتحقيقه ونشره

د. فخر الدين قَباوة(*)

ابن عساكر في تاريخه:

كان العلماء المسلمون قد شاركوا في مسيرة الحضارة الإنسانية، فصدر عنهم ما تميَّزوا به من موضوعات علمية وضعوا أُسسها نظرًا وتطبيقًا كتواريخ البلدان(1)، إذ بسطوا أعمالًا جليلة تحملك على الظن أن كل مدينة إسلامية وضع لها العلماء تأريخًا وسردوا تراجم مَن سكنها أو زارها مِن عالم أو سيِّد أو نبيل . بل إنك لترى عن البلد الواحد عدَّة مؤلَّفات، كالذي عُرف عن مكَّة المكرمة والمدينة المنوَّرة والقاهرة وبغداد وحلب الشهباء وكثير من العواصم المشهورة(2). ثم تجد ما كان خاصًّا بمدينة دمشق من نحو: «تاريخ أبي زُرعة الدمشقي» و«تنبيه الطالب وإرشاد الدارس» لمحيي الدين النُّعيمي، و«الروضة الغناء في دمشق الفيحاء» لنعمان بن عبده .

وبين هذه المصنفات كان في القرن السادس الإمامُ ابن عساكر(3)؛ الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المولود سنة ٤٩٩، قد شرع يجمع

(*) باحث سوري.

(1) الفهرست ١٩٧، كشف الظنون ٢٧٦ - ٣١٠، إيضاح المكنون ٢١١ - ٢١٨، الأعلام ١٠: ٢٨٠ - ٢٨٦.

(2) انظر نهر الذهب في تاريخ حلب ١: ٧ - ١٠.

(3) وفيات الأعيان ٣: ٣٠٩ - ٣١١، تاريخ مدينة دمشق ١: ١٤ - ٢٥.

ما سيؤلف منه «تاريخ مدينة دمشق»، فأمضى قرابة ٤٠ سنة في التلقِّي والرواية والتصنيف حتى سنة ٥٥٩ التي جاء تسجيلها على نسخة من السِّفر العظيم، بخط ابنه القاسم. وبهذا صار مجموع الكتاب ٨٠ مجلدًا، بيَّضها ابنه القاسم بخطه(١). وقد تابعه العلماء بما يغنيه في عدَّة أذيال، وما يختصره ويختار منه في بضعة عشر كتابًا(٢).

والمعروف في نهج المحدِّثين للتأليف أن يبدأ أحدهم بتلقِّي الروايات والأخبار، ثم يرسم خُطَّة التأليف بما يناسب العنوان المختار . وعلى ذلك سار ابن عساكر – وهو من كبار الحُفَّاظ والمحدِّثين – فتلقى من علماء عصره ما تحصَّل منه مصنَّفات غفيرة ، أشهرها ما انتظم في سِفر لمدينة دمشق، جمع فيه تاريخ الشام وفضائلها وما يتضمَّنه هذا التاريخ من منزلة لها وخصائص، وما في دمشق من خُطط ومساجد وكنائس وأبواب ودور وأنهار وأقنية، وما يلزم ذلك من تمهيد بعرض للسيرة النبوية المشرَّفة، وما يتعلق به من تراجمَ لمن حل في دمشق أو اجتاز بنواحيها من الواردين، منسوقة بحسب الترتيب الألفبائي للأسماء، مع تقديم ما هو مفضَّل كالأحمدِين قبلَ من اسمه إبراهيم، ثم يختم ذلك بمجلد خاص لتراجم النساء.

وبذلك قدَّم للتاريخ عملًا تعجز عنه العُصبة أولو القوَّة وكثير من الأجهزة الحديثة، أملاه على ابنه القاسم في نسق منهجي دقيق. فهو يبدأ كل موضوع بتلخيص مضمونه، ثم يُفصِّل عرض ذلك بما عنده من المعلومات، ويختمه بما يحتاج إلى تحديد زمن للولادة والوفاة أو منزلة علمية.

(١) ذيل الروضتين ٤٧.
(٢) كشف الظنون ٢٩٤، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٧ – ٣٨.

وخلال عرضه هذا يسرد معلومات، كثيرٌ منها لا يُرى في مصنَّف آخر، ويفسِّر الغريب والمعاني وبعض مسائل علوم القرآن والعربية(١) ويتعقَّب الأوهام، ولا ينسى العناية بنصوص المتن أيضًا(٢)، واقتراح تصويبات كثيرة لا قليلة كما ادَّعى بعض الباحثين(٣).

والتوجُّهات التي سلكها في هذه العمليات المنهجية أنه تلقَّى تلك الروايات عن ألف وثلاثِمائَةِ شيخ وثمانين شَيْخَةً(٤)، غالبًا ما تتصل أسانيدها بالنبي ﷺ ، وفي كلٍّ منها حلقات الرُّواة، ولكل راوٍ صفات متعددة . وقد وصلتْ إليه هذه الروايات بخلافات تعبيرية في الأداء، حتى لتقف على الرَّاوي الواحد في مجموع الأسانيد، قد ورد ذكره في كل منها بلفظ يخالف وروده في غيره فتظنُّه إنسانًا آخر.

وفي هذه الروايات النَّصِّيَّةِ ضروب من التباين، لا يستطيع تلقِّيها وأداءها إلَّا العالم من الحُفَّاظ الكبار . تصوَّر معي: كم تحتاج هذه المعلومات من الذاكرة والخبرة والأمانة للمرور بين خطوطها بوفاء وإخلاص؟ ثم إذا أصاب أحدَ خطوطها اضطرابٌ فمن ذا الذي يستطيع تسديده وتقويمه وإعادة نسقه، إن لم يكن الحافظ ابن عساكر نفسه أو من هو في منزلته أو أرفع منه؟

وقد غابت هذه الظاهرة بغِناها عن بعض المحدِّثين، فظنوا أن ابن عساكر يتعمَّد نشر اختلاف التعبير، ليُظهر قدراته ويُجهد القارئ . ومِن ثَمَّ

(١) ينظر ٢٣٩ – ٢٤٣، ٣٥٣ – ٣٥٤ من المجلد ١١ لتاريخ دمشق. وعليه نحيل ما نسرد بعدُ من أرقام صفحات دون مصدر.
(٢) ص ١٦٢، ١٨٣ – ١٨٨، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٦٠، ٣٠٠، ٣٢٠.
(٣) انظر تاريخ دمشق ١: ٣٥.
(٤) معجم الأدباء ١٣: ٧٦.

صاروا يروِّجون ذلك الظن بين طلَّابهم ليُعرضوا عن دراسة «تاريخ مدينة دمشق»، مع أنه نموذج فذٌّ بين منجزات العالم، وهو يمثِّل الخدمة العلمية العُظمى لسُنَّة الرسول ﷺ ولأحاديثه المشرَّفة ولتأريخ المدن، ولنهج التوثيق الذي جرى عليه رجالاتُ الإسلام في كثير من الأعمال المباركة.

أما تلك الخلافات التعبيرية عن العنصر الواحد، في قول ابن عساكر، فمصدرها اختلاف شيوخه فيما يحفظون من النصوص والألفاظ كما تلقَّوها، نقلها إلينا كما وردت عليه بالوفاء والإتقان.

وهكذا تابع عمله المبارك في التحديث، وصنَّف ما لديه من «تاريخ مدينة دمشق» في سِفر مبارك، أخرجه مرتين[1]: إحداهما كانت في ٥٧ مجلدًا والأُخرى في ٨٠، تضم ستة عشر ألفَ ورقة[2]، ثم أملَى ذلك على ابنه القاسم، فشرع الابن البارُّ في تبييض ما لديه وأنهاه في نسخة هي أوثق ما يكون[3]؛ لأن أكثرها من إملاء المؤلِّف نفسه على ابنه ومراجعته واطلاعه. وبعد وفاة الوالد أراد ابنه هذا توثيق روايات الكتاب، فراح يَلقى شيوخ أبيه ويراجعهم فيما نُسب إليهم من الروايات، ويسجِّل بقلمه ما وصل إليه من معلومات تؤكِّد صحَّة ما أورده الوالد مِنَ التلقِّي والأحكام والأسانيد والمتون والتوجيه.

وبهذا صار بين يدَى القاسم نسخة عالية التوثيق بما أضاف إليها من التعليقات والإشارات المؤكَّدة، هو راوٍ لها عن أبيه، ثم توالى النُّسَّاخ والعلماء يتخذون ما يتيسَّر لهم من أجزاء الكتاب. لكن كثرة الحروب والكوارث

(١) انظر منهج التحقيق للمخطوطات العربية ٢٠١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠: ٦٥.

(٣) فهرس المكتبة الأزهرية ٥: ٣٧٨.

والسطو على خزائن علوم الإسلام أبادت معظم ذلك، وأبقت أجزاء موزَّعة في مكتبات العالم لا ترى فيها ما يشكِّل نسخة واحدة تامَّة للتحقيق العلمي الدقيق.

مسيرة النشر للكتاب:

في القرن الماضي ظهرتْ بوادر تلك المسيرة، فوردت عدَّة صفحات في العدد الثامن من مجلة «المجمع العلمي العربي»[1] الكريم لعام ١٩٢٨ تحت عنوان «تاريخ أو أُسطورة». وهي من الجزء الثامن عشر من تاريخ ابن عساكر، فيها خبر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وبعد بضع وعشرين سنة، أي: في منتصف القرن الماضي، رأى ذلك المَجمَعُ المبارك أن يشرع في تحقيق ما يتيسَّر من هذا الكتاب الفذِّ، فوَضعتْ لجنة النشر الكريمة من أعضائه منهجًا علميًّا دقيقًا للعمل، سنذكر قواعده بعدُ إن شاء الله تعالى، وكُلِّف بعض أساتذتنا الكرام بالتنفيذ، فصدرتْ عدَّة مجلدات من العشَرة الأُوَل في بضع عشْرة سنة. وذلك باعتماد أصحِّ الأجزاء المعروفة حينذاك من مخطوطات الكتاب وأقدمها، لأنها بخط القاسم ابن المؤلف، كما ذكرنا قبل، ومقروءة مرتين، وفي متونها وحواشيها إثبات السَّماعات بالتفصيل.

ثم توقَّف النشر بعد تلك المجلدات المسنَدة الموثَّقة، لِما ظهر بعدها في بقية النُّسخ من خلل ونقص وطمس واسْوِدادٍ وتَقطُّع واضطراب وتصحيف وتحريف، ولافتقاد ما يسدِّد خطوات العمل فيها، وكان سعيٌ في تحقيق بضعة مجلَّدات لا يُعرف ما انتهت إليه ولا مستواها العلمي.

(١) انظر إحياء التراث وتحقيقه ونشره للدكتور صلاح كزارة ١٠ – ٢٨ من مجلة اللغة العربية بدمشق، العدد الخاص بالمؤتمر السنوي الثامن تحت عنوان: «نحو رؤية معاصرة للتراث».

وبعد خمس عشْرة سنة رُئي أن تُهمل تلك المجلَّدات المختلَّة وما نُتج عنها، فتَجدَّد النشاط الكريم بنشر ما له نسخ مناسبة، وصدر عن ذلك تسعة وثلاثون مجلَّدًا أرقامها من ٣١ إلى ٦٩. وهو جُهد مشكور يمثل الغاية النبيلة من التحقيق والاهتمام البالغ الذي يستحقُّه هذا المؤلَّف التاريخي العظيم.

وبين ثنايا هاتين المرحلتين الكريمتين من النتاج العلمي المتميِّز كانت مَساعٍ متفرِّقات في شيء من المجلَّدات المضطربة، ثم صدر من ذلك جزء تحت عنوان «تراجم النساء» عن دار الفكر في بيروت سنة ١٩٨٢، وما جاء عن «المتنبِّي عند ابن عساكر»، وهو منقول من كتاب «الإبانة عن سرقات المتنبِّي» للعَمِيدي محمد بن أحمد، أنجز تحقيقه الأستاذ محمود محمد شاكر سنة ١٩٨٧، ونشره ضمن كتابه: «المتنبِّي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا».

ومن خـلال تلك الجهود المذكورة، لمستْ دور النشر الأهمِّية التِّجارية لـ«تاريخ مدينة دمشق»، فكان أن صدر عن دار الفكر أيضًا ما هو معروف من مجلدات الكتاب كله، بما فيها من خلل واضطراب، وبأساليب هزيلة مِنَ النشر السُّوقي الرَّخيص، قام بقِسمه الأول السيد علي شيري عام ١٩٩٤، ثم أُعيد نشر مجموع الكتاب في ٨٠ مجلَّدًا بعناية السيد محب الدين عمـر العمروي سنة ١٩٩٨، وفي سنة ٢٠٠١ أصـــدرت دار إحيـاء التراث العربي في بيروت مجموع الكتاب أيضًا في ٧٥ مجلَّدًا بجهود السيد أبي عبد الله الجنوبي، معتمدًا ما كان في المطبوعة الأولى لدار الفكر وشذرات من النُّسخ المعروفة.

وقبل هذه العمليات الأخيرة كانت مؤسسة المحمودي في بيروت قد شرعت سنة ١٩٧٨ تصدر عدَّة أجزاء خاصَّة من الكتاب، تضمُّ تراجم

الإمام عليٍّ والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وأبي هريرة ﷺ، بزيادات من الأخبار والأقوال ليس لها أصل في «تاريخ ابن عساكر»، واستمر ذلك حتى عام ١٩٩٨.

وكان في عام ١٩٨٤ قد صدر عن مؤسسة الرسالة ببيروت كتيِّب تحت عنوان «مِن الضائع مِن معجم الشعراء للمَرْزُباني» بجهود الدكتور إبراهيم السامرَّائيِّ، وفيه بعض نُثارٍ من: «تهذيب تاريخ دمشق الكبير» لابن عساكر.

ثم كان في عام ١٩٩٦ أن نشر المعهد الملَكي للدراسات الدينية بمشاركة دارَيِ الشروق في عَمَّان ورام الله كتابًا تحت عنوان «سيرة السيد المسيح لابن عساكر الدمشقي»، بجُهد السيد سليمان علي مراد، وفيه من الجهل والتخليط ما يتعذَّر تَتَبُّعه وسَرْدُه.

وهكذا استُلَّت عناوين جانبية متعدِّدة من الكتاب ونُشرت، فكان منها أيضًا لحُميد بن ثور الهلالي، وأبي الفتح البُسْتي، والراعي النُّمَيْري، وعبد الله ابن عباس، والزُّهْري.

وفي عام ١٩٨٩ أصدر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، في وزارة التعليم العالي بدمشق، كتاب «ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمِائَةِ سنة على ولادته»، فجاء فيه نصوص من تاريخه نشرها بعض المستشرقين: الأول تحت عنوان «وثيقة معاصرة لنور الدين»، وهي ترجمة حياته لابن عساكر، والثاني عنوانه «رواية الحديث في سورية في العهد الفاطمي»، والثالث والرابع إشارتان إلى: تراجم مستلَّة من كتاب ابن عساكر، وما يتعلَّق منه بخليج القُسْطَنْطِينيَّةِ.

وبين سنَتي ١٩٩٩و ٢٠٠٨ صدر «معجم الشعراء من تاريخ ابن عساكر» في ٨ مجلدات، عن دار الفكر المعاصر ببيروت ودمشق، مستخرَجًا

من ذلك السِّفر الكريم، بجهود الدكتور حسام الدين فرفور وصَحْبِه، وإشراف الدكتور شاكر الفحَّام، وفيه من التصحيف والتحريف والتقحُّم ما لا يعلم حدوده إلَّا الله ﷻ. وأخيرًا ظهر سنة ٢٠٠٨ الجزء المتمِّم للخمسين خاصًّا بأمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفي ذلك العام صارت مدينة دمشق عاصمةَ الثقافة العربية، فرأت الإدارة الكريمة لمجمع اللغة العربية أن تشارك في الاحتفاليَّات بإصدار المجلَّدات الباقية من «تاريخ مدينة دمشق»، ورغبتْ إليَّ أن أُساهم في ذلك، مع مَن أختارُه من العاملين في ميدان التحقيق بمدينة حلب، فلبَّيت الرغبة شاكرًا الثقة الغالية، ورشَّحت لذلك زملائي: الدكتور أحمد فوزي الهيب والدكتور صلاح كزارة والدكتور فاروق إسليم. وقد تكرَّمَتِ الإدارة الفاضلة بالموافقة على هذا، ثم كلَّفتني بالإشراف مبدئيًّا على تحقيق ثلاثة مجلَّدات، هي الحادي عَشَرَ والثاني عَشَرَ والثالثَ عَشَرَ، واختارت لي أولَها أحقِّقه بنفسي. وبذلك قلَّدتني مشكورة وسامًا رفيع المقدار وجميلًا من الإكرام لا يُنسى.

وفي الاجتماع الأول لمباشرة العمل في المجمع المكرَّم أطلعَنا الإخوة المتَّصلون بأصول السِّفر الخطِّية على نسختين رديئتين، وذكروا لنا وجود نسخ أُخرى جيِّدة تيسِّر التحقيق العلمي القويم للأجزاء المتبقية. ولقد رأينا في هذا العمل إكرامًا آخر أعظم، هو خِدمتنا للحديث المشرَّف وصاحبه الحبيب ﷺ ولعلمائه وحفَّاظه ورُواته العظام. فقراءة مثل هذه النصوص هي بنفسها عبادةٌ لله - جل وعلا - وصُحبةٌ كريمة لرسوله ﷺ ولرجال علوم الحديث وأعمالهم المباركة. فكيف إذا كان العمل في تحقيق تلك النصوص وإخراجها إلى الناس بثوبٍ علمي سديد، وفي ذلك قراءات لكل عبارة وكلمة مرارًا وتكرارًا، وترداد بالمئات والآلاف للصلاة والسلام على

الشفيع المشفَّع، ومع كل منها صلوات علينا لا تحصى منه ومن المولى سبحانه وتعالى.

وهكذا انطلقنا بسرور لا مزيد عليه، نتابع جمع الموادِّ والوسائل اللازمة، وكلنا أمل أن ننجز تحقيق المجلدات الثلاثة في آخر العام المذكور، ليكون مظهرًا لائقًا بالاحتفاليَّات المستمرَّة في مدينة دمشق الفيحاء.

النُّسخ الخطِّيَّة:

المعروف في علم التحقيق أن النشر العلمي يعتمد نسخًا منسوبة تتصل بالمؤلف أو بمن هو قريب منه كالتلاميذ والشيوخ، وموثَّقة بالأسانيد والقراءات والسَّماعات والمعارَضات والإجازات وخطوط العلماء الأثبات وتواريخ التصنيف والنَّسخ والتملُّك[1].

ولَمَّا قررتْ إدارة المجمع الكريمة في منتصف القرن الماضي نَشْرَ «تاريخ مدينة دمشق»، ووضعتْ منهجًا علميًّا للتحقيق، ثبَتَ في الأذهان أن ذلك مبني على مجموع نسخ تقدِّم الأساس المطمئنَّ الرَّكين. وقد ذكر شيوخنا الأكارم الذين باشروا ذلك العمل ما كان بين أيديهم من بقايا النُّسخ الخطِّية، فإذا هو أجزاء متفرِّقة مما في[2]:

١- نسخة مكتبة الأزهر الشريف، قُرئت مرَّتين على المؤلف وسمعها ابنه منه، وقرأ هو نفسه بعضها، وهي بخط ابنه القاسم وعليها تعليقاتٌ بخطه وثبَتٌ ببعض السماعات، وتاريخ انتهاء كتابتها سنة ٥٦٠هـ.

٢- نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق من وقف سليمان باشا العَظْم،

(١) علم التحقيق للمخطوطات العربية ١٨٢ - ١٩٦.

(٢) انظر تاريخ دمشق ١: ٤٦ - ٤٨ والقسم الأول من السيرة النبوية منه (ل)، ١٠: ٥٠٧ - ٥١٢، ٣٢: ١٩ - ٢٠، ٦٠: (ب - د)، ٥٠: (هـ).

ونسخة المتحف البريطاني، وتاريخ الكتابة سنة ١١١٨ و١١١٩هـ.

٣- نسخة ثانية في المكتبة الظاهرية من وقف أسعد باشا بالخياطين، تاريخ نسخها سنة ١١٦١هـ.

٤- نسخة في مكتبة جامعة كمبردج.

٥- نسخة في مكتبة أحمد الثالث بإستانبول، نسخت في القرن العاشر.

٦- نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة، وهي صورة ثانية من نسخة أحمد الثالث.

٧- نسخة البِرزالي بخطِّه، في مكتبة خُدابَخْش بالهند، سمعها البرزالي على ابن أخي المؤلِّف، وعارَضها بالنُّسخة الأولى من «تاريخ مدينة دمشق».

٨- نسخة مرَّاكش في خزانة ابن يوسف، وهي في الخزانة العامة بالرباط.

٩- نسخة مكتبة جامعة ييل، تشبه نسخة أحمد الثالث وأقل منها سقطًا وتصحيفًا، تاريخ نسخها سنة ١٠٩٥هـ.

١٠- نسخة تونس، في مكتبة جامع الزيتونة.

١١- نسخة باريس، في المكتبة الوطنية.

هذا ما هو معروف من بقايا النُّسخ بين أيدي شيوخنا الأكارم، وهم يحقِّقون الأجزاء المذكورة قبلُ من «تاريخ مدينة دمشق».

وعندما شرعنا نحن في العمل تبيَّن أن النُّسَخ الجيِّدات المذكورات فيما مضى لا علاقة لها بما كُلِّفناه، فأطلعَنا الزملاءُ الكرام العارفون بما عندهم من المخطوطات على ما يتعلَّق بعملنا، فإذا هو اثنتان رديئتان جدًّا، كما ذكرنا قبل، مع وعدهم إيانا بتصوير نسختين جيِّدتين فيما بعد لتسديد العمل. وما كان منَّا إلَّا أن درسنا ما في النُّسختين الباليتين، على أمل أن ترسَل إلينا

النُّسختان الصالحتان ويُنجز ما تعهَّدنا به في ختام العام المحدَّد. ولكنْ تعذَّرتْ علينا متابعة العمل لِما في النُّسختين لدينا من قصور، إذ كان منهما عندنا ما يلي[1]:

نسخة أحمد الثالث: وهي مجموعة من الأوراق كُتب عليها بقلم معاصر: «هذه الأوراق مأخوذة من نسخة: «د»، ولا تُعرف تجزئتها». وكان نصيبي منها الورقات ٢٥٠ - ٣١٠، والتصوير حصل في قسمين: أولهما غائم وموشَّح بالسَّواد والطَّمس في الحواشي وبين الأسطر والكلمات، والثاني غائب الحروف والتراكيب والتعبير، تتعذَّر قراءتُه وتبيُّنُ كلماته، وكل صفحاته مختلَّة التنسيق ومرقَّمة بأرقام على اضطراب نَسَقها، فبذلنا الجهود المضنية أنا والسيد الدكتور محمود حسن - أكرمه الله - حتى استطعنا إعادتها إلى وضعها الحقيقي.

هذا كله مع خروم وبياضات كثيرة في القسمين، بعضها بنقص كلمات أو عبارات، وبعضٌ لفَقْد أسطر، وبعضٌ واسع المدى يستغرق صفحات أو عشرات. وقد انتهى الجزء الثاني والأربعون بعد المائَة من هذه النُّسخة في آخر ترجمة جميل بُثينة[2]، لتبدأ ترجمة جميل بن أبي مُحارق بالجزء التالي، وقد أشرتُ إلى كل ذلك في التعليقات على النص[3].

ولتعسُّر ما نعاني في تذليل الصِّعاب، شكونا ما نحن فيه إلى إدارة المجمع الموقَّرة فأرسلتْ إلينا صورة ثانية من هذه النُّسخة، وهي ذات الرقم (٦) مما ذكرنا قبل، ومحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة، وتصويرها

(١) انظر الجزء ١١ من تاريخ ابن عساكر (ظ - دد).

(٢) انظر ٢٦٨.

(٣) في ص ١١٤، ١١٥، ١٢٩، ١٤٦، ٢٠٨،....

أفضل من الأولى، لكنه مصغَّر في شيء من السَّواد والخروم نفسها أيضًا، وقد ساعدتنا مع ذلك كلِّه على تبيُّن بعض ما خفي من معالم الأولى.

نسخة سليمان باشا: وهي آخر المجلدة الخامسة من ذات الرقم (٢) مما ذكرنا قبل بالمكتبة الظاهرية، ونصيبي منها الورقات ٢٨١ - ٣٦٠، وتصويرها جيِّد واضح، حتى إن شيوخنا الأفاضل كانوا يعتمدونها أصلًا فيما أصدروا من الأجزاء التي تضم بعضًا منها. ولكن دراستنا لها كشفتْ فيها عن عواوير من تصحيفات وتحريفات وتصرُّفات كثيرة بحذف وزيادات، مع إخلال في استخدام مصطلحات الرواية والأسانيد واستبدال رمز التحويل: «ح» بكلمة «حينئذ» أو «انتهى».

والخروم التي في نسخة أحمد الثالث حاصلة في هذه أيضًا، مع زيادة بافتقاد ورقة في ص ٢٢٠ من كتابنا الذي حققناه، ونقص ١١ ترجمة بين صفحة ١٧٨ و٢٠٩ منه، وإقحام أكثر من ٢٠ سطرًا في ص ٦٢ هي من ترجمة ثَوْبِ بن تُلْدة بعدُ. وفي صفحة ١٧٨ أيضًا جاء النص التالي: «وَقْف حضرة الوزير الحاج سليمان باشا على مدرسته العامرة، لطلبة العلم الشريف، بشَرْط ألَّا يخرج منها. أحسنَ الله عواقبه. آمين».

وقد استعنَّا بهذه النُّسخة رامزين إليها بالحرف: «س». ثم تجد في نسخة عاطف أفندي صورة مطابقة لنسخة سليمان باشا، مع رداءة ظاهرة وخلاف يسير وافتقاد التعبير عن وَقْفها، وقد رمزنا إليها بالحرف: «م».

نسخة كمبردج: هي بضع وعشرون ورقة منها أُرسلت إليَّ وحدي، أولها ترجمة تميم بن عبد الله، فتميم بن عطية، فالبدء بترجمة تميم بن محمد بن الحجَّاج، ثم يكون فيها خرم يستمرُّ حتى منتصف ترجمة ثابت بن عَجْلان، وتنتهي الورقات بأواخر ترجمة جابر بن عمرو، حيث يُذكر تمام الجزء

الثالث من «تاريخ ابن عساكر». وما في هذه الأوراق شبيه جدًّا بمضمون نسخة سليمان باشا، لكنه أصحُّ عبارةً وأدق تعبيرًا عنِ المصطلحات العلمية، فأفادنا كثيرًا في التصويب والترميم، وقد أشرنا إلى نسخته بالحرف: «ك».

منهج التحقيق:

كان علينا - نحن الثلاثة - أن نكتفي بما تحصَّل بين أيدينا من نُسخ، وأن نعمل بتوجيهٍ واحد ما أمكن، متَّكِلينَ على الله ﷻ . وقد أغنانا أساتذتُنا الأكارم، فيما حقَّقوا من أجزاء «تاريخ مدينة دمشق»، بما قدَّموه من تعريف بابن عساكر وكتابه الفائق، وتوصيف لنسخه الخطِّية المعروفة بما فيها من خطوط ومِسطرات وتجزئة، والمنهج القيِّم لتحقيق نصوصه، فكَفَوْنا مؤونة التكرار والتفصيل. ولذا تجاوزنا ذكر تلك الموضوعات الفنِّية الأساسية، وتوزَّعنا العمل المقرَّر وما عندنا من المخطوطات، فكان نصيبي من ذلك هو الجزء الحادي عشر من السِّفر المبارك، يبدأ بتتمَّة ترجمة «ثابت بن أقرم»، وينتهي بترجمة «حاجب القرشي». ثم افترقنا لدراسةِ الأوضاع الحالية للنسخ والتوصُّلِ إلى نهج مناسب في التحقيق المبارك.

وبعد اجتماعات ومُدارَسات ومراجَعات تبيَّن لنا أن نسخة أحمد الثالث، على رداءة مظهرها وتنوُّع تصويرها وسوئه، هي أصحُّ من نسخة سليمان باشا في عبارات النصِّ وألفاظه، كما ذكرتُ قبل، وأدقُّ تعبيرًا عن ذلك في علم الرواية بالتزام تقاليد الأسانيد والرموز العلمية المعتمدة، وأقدم تاريخًا في النَّسْخ، وفيها زيادات كثيرة جدًّا تستغرق عددًا كبيرًا مِنَ التراجم، كما هي الحال في نصيبي من تحقيق الكتاب. وعلى هذا فهي أجدر من نسخة سليمان باشا بأن تكون أصلًا في التحقيق.

ومن ثَمَّ كان بيننا حوار مطوَّل فيها ترجَّح لدينا من ذلك؛ لأن ما ظهر لنا يخالف إجماع شيوخنا من قبل على تقديم نسخة سليمان باشا الغنية بالعواوير، وليس مِنَ اليسير هذا الخلاف. غير أنَّ متابعة الدراسة والنقد والتقويم للنسختين، أثبتت لنا ما ذهبنا إليه، فاعتمدنا نسخة أحمد الثالث **أصلًا**، وسجَّلنا أرقام ورقاتها في هوامش الصفحات، وجعلنا نسخة سليمان باشا رديفةً تساعد في التصويب والضبط والتحقيق.

ومع هذا كانت شكوانا تتوالى على رئاسة المجمع الموقَّرة، لقصور ما عندنا عن إخراج نص محقق بوفاء، فتكرَّمتِ الإدارة مشكورة بإيفاد أحد العاملين عندها إلى القاهرة، فعاد بصورة ثانية لنسخة سليمان باشا من دار الكتب المصرية، هي طِبق الأولى مع خلاف يسير، وأصلها في مكتبة عاطف أفندي بإستانبول. ثم هي أردأ مِنَ الأولى، ولكنها تُسْعِف في بعض عمليات التحقيق.

ثم أُرسِلتْ إليَّ وحدي السِّتُّ والعشرون ورقة من نسخة مكتبة كمبردج، وهي تبدأ بما له صلة بعملي في أواخر الورقة ٢٥٤ من الأصل بعد نقص كثير وقع في أول ترجمة «تميم بن محمد بن الحجَّاج»، وشبيهةٌ جدًّا بنسخة سليمان باشا، وتنتهي بختام الجزء الثالث منها. وقد رَمَّمتْ هذه الورقات بعضَ ما في النُّسختين بصورهما الأربع مِنَ الخَلَل. وبقيتْ سائر النُّسخ لا يستفاد منها؛ لأنها محفوظة في غرفة «ابن عساكر» من دار السيدة سُكينة الشهابي بعد وفاتها، تنتظر الإفراج عنها.

وبهذا تعقَّدت أمور العمل وتراكمتِ المشكلات في النص، دون أن نجد لها حلًّا يوصِل إلى شيء مِنَ الصَّواب النهائي، فلم نستطع أن ننجز التحقيق في عام الاحتفاليَّات بمدينة دمشق، وجاءنا خطاب كريم من

سيادة رئيس المجمع الدكتور مروان المحاسني يستنجز الوعد، فكان جوابي في ١/ ٣/ ٢٠٠٩ رجاء العذر في التأخير لأننا كُلِّفنا بثلاثة مجلدات، أعرَض أسلافنا الزملاء الأكارم عنها وتجاوزوا العمل فيها، لافتقاد الأصول الخطِّية المناسبة، إذ كل ما يتيسَّر من ذلك هو أمشاجٌ مُزجاة مختلَّة مضطربة مشتَّتة ومغمورة بالخروم والتقطُّع والبياض والسواد والتصحيف، وليس بينها جزء يقدِّم أصلًا أو فرعًا لتحقيق النص، كما هو ظاهر في نماذج عشرات الصفحات المرافقة حينذاك للجواب المذكور.

وفي خلال عملي كنت أطالع ما يساعدني على تقويم العمل وتسديده - بعون الله ﷻ - فاطَّلعتُ على ذكر نسختين خطِّيتين لهذا السِّفر العظيم، لم يستفد منهما الزملاء الأكارم في أعمالهم المشكورة الماضية ولا ذكروهما، وبلَّغتُ سيادة رئيس المجمع للسعي في تأمين تصويرهما. كانت إحدى هاتين النُّسختين قد ورد ذكرها في ص ٣٦٤ من كتاب «ابن عساكر»، الذي أصدره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في وزارة التعليم العالي بدمشق عام ١٩٧٩، وهي في خزانة القرويِّين بفاس ضمن ٣١ جزءًا، وأعتقد أن الجزء الذي أُحقِّق بعضه حاضرٌ في هذه النُّسخة، والأُخرى ورد ذكرها في ص ٣٤٠ من ذلك الكتاب أيضًا، وهي في مكتبة جامعة كولُمبيا بنيويورك في ١٠ أجزاء. ولكن لم يتيسر لنا الوصول إلى شيء من هذا - بكل أسف - ولا مِنَ النُّسخ الغفيرة المنثورة في مكتبات العالَم، لتقويم مسيرة التحقيق، فاعتمدنا على الله ﷻ وسِرنا في القدَر المحتوم، بهدي من واجبات المحبة والإتقان والوفاء.

كان بدأ التحقيق العملي بجعل نسخة أحمد الثالث **أصلًا** على ما ذكرتُ قبلُ، فأثبتُّ النص كما جاء فيها، مع الاحتفاظ بالرموز الفنية الواردة فيها

أيضًا لعلوم الحديث في الأسانيد والمتون والرواية والعنعنة والإجازة والنقل والمراسلة. وقد جاء فيها زيادات كثيرة كما ذكرت أيضًا، منها ٥ ورقات تضم قسمًا من ترجمة «جابر بن عمرو»، ثم تراجم: جابر الرُّعَيْني، وجابر النَّخَعي، وجارية بن أصْرَم، وجارية بن عبد الله، وجارية بن قُدامةَ، وجامع ابن بكَّار، وجامع بن مِخْنَف، وجانوش بن بك، وجَبْرون بن عبد الله، وجبريل بن يحيى، وجَبَلة بن الأيْهَم.

ثم كان بعد ذلك خرم كبير في الأصل والنُّسخ، يضم تراجم ٦٥ مِن أعلام مَن ذُكر في «تاريخ مدينة دمشق»، وقد وردت هذه التراجم في مختصر ابن عساكر ٥: ٣٧٤ - ٣٧٦ و٦: ١ - ١٠٧، تبدأ بجَبَلةَ بن سُحَيْم وتنتهي بجعفر بن يحيى بن خالد[1]. ولم أستطع استدراك هذه التراجم لفقدها فيما بين يديَّ من النُّسخ.

على هذا كان وضع العمل المبارك، ثم عارضتُ ما عندي مِنَ الأصل بما جاء في نسخة سليمان باشا، وما في نسخة عاطف أفندي، وبأوراق نسخة كمبردج. ومع ذلك، فقد أغفلتُ بعض ما اختلفت فيه النُّسخ من لفظ الجُمل الدعائية والتعظيم بعد لفظ الجلالة والرسول الكريم، ومن تصحيف أو تحريف أو إخلال أيضًا، لكثرته وعدم جدواه.

(١) في الجزء ١٢ من مطبوعة دار إحياء التراث ص ٣ - ٧١ وردت زيادة تراجم ٥٣ من الرجال: ترجمة جرير بن عبد الله بن جابر وما بعده إلى ترجمة جعفر بن يحيى بن خالد. ولأن هذا كله ليس له في الأصل والنسخ نصيب وجب عليَّ إغفاله. ثم ليس هذا كله، مع ما بعده حتى «جعونة بن الحارث بن خالد»، فيما نشر من مطبوعات الكتاب ولا في التهذيب فاعتمدتُ منه ما كان في الأصل وحده. وافتقدت النصوص أيضًا إلى «جارية بن قدامة» من المختصر، وإلى «جماهر بن حميد» في التكملة، وإلى «جرير بن عبد الله بن جابر» في مطبوعة دار إحياء التراث العربي. وكل ذلك المفقود فيما ذكرتُ هو ثابت في الأصل ، وادَّعى العمروي أنه لم يعثر عليه ، وأن ما جاء في مختصر ابن منظور منه لا يُركن إليه. كذا مع أن محقِّق «المختصر» قد ذكر في بعض ما سجَّل اعتمادَه ذلك الأصلَ غير مرة.

ولَمَّا كانت نسخة دار الكتب المصرية صورة ثانية للأصل فقد استعنتُ بها للتصويب دون رمز خاص لها، ولما كانت «س» و «م» و «ك» متشابهة جدًّا كأنها من أصل واحد، فهي حين تتفق في التعبير أُشيرُ إليها بقولي: «**النُّسخ**». وكذلك الحال حين تتفق «س» و «م» أكتفي للإشارة إليهما بالرمز: «س»، وقلَّ أن أعبر عن ذلك بقولي: «**النُّسختان**». فإذا انفردت إحدى النُّسخ الخطِّية بشيء من الخلاف أفردتها بالرمز الخاصِّ لها.

أضف إلى هذا أنني ربما استعنت بمطبوعة السيد شيري مع الرمز إليها بحرف «**ش**»، وبمطبوعة العمروي وبمطبوعة الجنوبي والمعجم أيضًا، مع العلم أن غير مطبوعة المجمع المبارك من «تاريخ مدينة دمشق» لا يُطمأنُّ إلى شيء من الصواب فيه، بل كثيرًا ما يُضلِّل الدارسُ والباحثُ والمحقِّقُ بالأوهام والهَنَاتِ والتقحُّماتِ والتصرُّفاتِ الفاضحة، إذ لم يقم على تحقيق أو جهد علمي محمود.

والآن وبعد سعي مضاعف مبارك في ثلاث سنوات، أستطيع أن أقول بشيء من التهيُّب: إنني حقَّقت مجلَّدًا صغيرًا من هذا السِّفر العظيم، مستهديًا بالنهج الذي رسمتْه لجنة المجمع الفاضلة، وبما أضافه بعض أساتذتنا الشيوخ من لمسات عملية مشكورة وبالنسق التنظيمي للفهارس الفنية. ففي عام ١٩٥١ شُرع في المجمع العلمي العربي بنشر هذا التاريخ، فحدَّدَتِ اللجنة المختصة في العمل «أن الغاية من تحقيق الكتاب هو تقديم نص صحيح. لذلك يجب أن يُعتنى باختلاف الروايات، وأن يُثبت ما صح منها»، مع الاستعانةِ بمصادر تاريخ دمشق وما نقل عنه، والإيجازِ في التعليقات، وضبطِ الأعلام، وتفسيرِ الغريب، وتوظيفِ بعض علامات الترقيم ، وترقيم سطور النص، وجعْل الآيات الكريمة ضمن قوسين

مزهَّرين، وإغفال تخريج الأحاديث الشريفة[1]. وأنت ترى أن بعض هذا النهج أنفاسٌ استشراقيةٌ، لا يجوز اعتمادها في تحقيق التراث الإسلامي. ثم أضاف أساتذتنا الكرام توجُّهات عملية أُخرى فيما نشروا، وأتبع ذلك الزميلُ الكريم الدكتور أحمد فوزي الهيب في المجلدة الثانية عشرةَ بعض اللمسات الفنية[2]، فاعتمدت مجموع ما رُسم ليكون العمل على وِفاقٍ في المنهج والصورة العلمية الرائقة.

على أنني لا بد أن أذكر ما اعترضني من ذلك النهج وزياداته في مراحل العمل، واستعصى عليَّ إجراء بعضه بالدقَّة التامَّة حتى عدَّلتُ صورته وأدخلتُ فيه ضروبًا من التوجيهات، كي يناسب مصنَّفاتِ السُّنَّة النبويَّة المشرَّفة وأساليبَ إيراد الأسانيد والنصوص المتداخلة في أسفار الحديث المطهَّر وشروحه، وكي يتيسَّر توظيفه للبحث العلمي أو الأدبي. وكلي رجاءٌ أن يتأمَّل إخواني هذه التوجيهات ليتبيَّن لهم وجه الصواب فيها، أو يضيفوا إليها ما يرمِّم نقائصها دون ذيول مفتعلة، ويجعلوا ذلك نهجًا متَّبعًا في تحقيق كتب الصِّحاح والسُّنن والمسانيد والمجاميع وما يتعلق بها من شرح واستدلال وإعراب واقتباس. وها أنا ذا أورد بعض ما تيسَّر لي من ذلك:

١- تمييزُ العناوين العامَّة بجَعْلها في أول صفحة منقطعةً عما قبلها، وبفراغ صغير قبل العنوان في أول الصفحة للدلالة على ذلك التميُّز.

٢- توزيعُ عناوين التراجم بنسق متدرِّج في حجم الحروف، ليكون للعنوان العامِّ حرف أكبر وللخاصِّ صغير وللفرعي أصغر، مع اختيار أقل ما يمكن للعنوان من عبارة المؤلف، وجَعْل الباقي ضمن ما بعده.

(١) انظر مقدمة المجلد الأول من تاريخ مدينة دمشق، وعلم التحقيق للمخطوطات العربية ١٤٠.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٥-٧.

٣- اختصارُ العناوين الجانبية المقحمة في الحقل الهامشي ما أمكن، وتقليل عددها بجمع الأشباه والنظائر منها في التعبير الموجز الوافي، وجعلها مطلقةً من الأقواس التي كانت حاصرة لها فيما نُشر من التاريخ المذكور.

٤- إغفالُ الحقل الهامشي الوحشي الذي كان يلتزمه الأساتذة الكرام في صفحات الكتاب، ليسجلوا فيه أرقام عدد أسطرها. وهو عمل يُجهد الكتاب بزيادات وأرقام لا يحتاج إليها إلَّا المستشرقون. وقد سمحتْ لنا إدارة المجمع بإغفال ذلك مشكورة.

٥- تمييزُ الفِقرات التي تتضمن نصًّا جديدًا بعد نهاية ما قبلها - بجعل حروف الكلمة الأولى من كل فقرةٍ ذاتَ حرف أسود قاتم. وسترى ذلك في نماذج نوردها بعدُ.

٦- ضبطُ الأسماء الأعلام والنصوص القرآنية والنبوية والشعرية ضبطًا مناسبًا، لتمييز المفردات والأسماء والألقاب والكُنى المتشابهة بعضها عن بعض، ولتعيين معاني العبارات ومضامين الكلام والسياقات المختلفة. ويكون في ذلك استغناء عن ضبط ياءِ النسبة والسكونِ غير الواجب ولاماتِ التعريف وهمَزاتِ الوصل وهمَزاتِ القَطع غير المضمومة في أول المفردات والفتحةِ قبل الألف أو تاء التأنيث[1].

٧- وصلُ عنوان الترجمة بما بعده من التعريف لصاحبها، لأنه تتمَّة في موقع «خبر» لجملة واحدة مبتدأها أول كلمة من العنوان، كما هو متَّبع في مصنَّفات التراجم والطبقات وجارٍ عليه الإمام ابن عساكر تقليدًا لشيوخه

(١) ينظر ص ٢٣٥ - ٢٣٨ من كتابنا: علم التحقيق للمخطوطات العربية.

مزهَّرين، وإغفال تخريج الأحاديث الشريفة[1]. وأنت ترى أن بعض هذا النهج أنفاسٌ استشراقيةٌ، لا يجوز اعتمادها في تحقيق التراث الإسلامي. ثم أضاف أساتذتنا الكرام توجُّهات عملية أُخرى فيما نشروا، وأتبع ذلك الزميلُ الكريم الدكتور أحمد فوزي الهيب في المجلدة الثانية عشرةَ بعض اللمسات الفنية[2]، فاعتمدت مجموع ما رُسم ليكون العمل على وِفاقٍ في المنهج والصورة العلمية الرائقة.

على أنني لا بد أن أذكر ما اعترضني من ذلك النهج وزياداته في مراحل العمل، واستعصى عليَّ إجراء بعضه بالدقَّة التامَّة حتى عدَّلتُ صورته وأدخلتُ فيه ضروبًا من التوجيهات، كي يناسب مصنَّفاتِ السُّنَّة النبويَّة المشرَّفة وأساليبَ إيراد الأسانيد والنصوص المتداخلة في أسفار الحديث المطهَّر وشروحه، وكي يتيسَّر توظيفه للبحث العلمي أو الأدبي. وكلي رجاءٌ أن يتأمَّل إخواني هذه التوجيهات ليتبيَّن لهم وجه الصواب فيها، أو يضيفوا إليها ما يرمِّم نقائصها دون ذيول مفتعلة، ويجعلوا ذلك نهجًا متَّبعًا في تحقيق كتب الصِّحاح والسُّنن والمسانيد والمجاميع وما يتعلق بها من شرح واستدلال وإعراب واقتباس. وها أنا ذا أورد بعض ما تيسَّر لي من ذلك:

١- تمييزُ العناوين العامَّة بجَعْلها في أول صفحة منقطعةً عما قبلها، وبفراغ صغير قبل العنوان في أول الصفحة للدلالة على ذلك التميُّز.

٢- توزيعُ عناوين التراجم بنسق متدرِّج في حجم الحروف، ليكون للعنوان العامِّ حرف أكبر وللخاصِّ صغير وللفرعي أصغر، مع اختيار أقل ما يمكن للعنوان من عبارة المؤلف، وجَعْل الباقي ضمن ما بعده.

(١) انظر مقدمة المجلد الأول من تاريخ مدينة دمشق، وعلم التحقيق للمخطوطات العربية ١٤٠.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٥-٧.

٣- اختصارُ العناوين الجانبية المقحمة في الحقل الهامشي ما أمكن، وتقليل عددها بجمع الأشباه والنظائر منها في التعبير الموجز الوافي، وجعلها مطلقةً من الأقواس التي كانت حاصرة لها فيما نُشر من التاريخ المذكور.

٤- إغفالُ الحقل الهامشي الوحشي الذي كان يلتزمه الأساتذة الكرام في صفحات الكتاب، ليسجلوا فيه أرقام عدد أسطرها. وهو عمل يُجهد الكتاب بزيادات وأرقام لا يحتاج إليها إلَّا المستشرقون. وقد سمحتْ لنا إدارة المجمع بإغفال ذلك مشكورة.

٥- تمييزُ الفِقرات التي تتضمن نصًّا جديدًا بعد نهاية ما قبلها - بجعل حروف الكلمة الأولى من كل فقرةٍ ذاتَ حرف أسود قاتم. وسترى ذلك في نماذج نوردها بعدُ.

٦- ضبطُ الأسماء الأعلام والنصوص القرآنية والنبوية والشعرية ضبطًا مناسبًا، لتمييز المفردات والأسماء والألقاب والكُنى المتشابهة بعضها عن بعض، ولتعيين معاني العبارات ومضامين الكلام والسياقات المختلفة. ويكون في ذلك استغناء عن ضبط ياءِ النسبة والسكونِ غير الواجب ولاماتِ التعريف وهمَزاتِ الوصل وهمَزاتِ القطع غير المضمومة في أول المفردات والفتحةِ قبل الألف أو تاء التأنيث[1].

٧- وصلُ عنوان الترجمة بما بعده من التعريف لصاحبها، لأنه تتمَّة في موقع «خبر» لجملة واحدة مبتدأها أول كلمة من العنوان، كما هو متَّبع في مصنَّفات التراجم والطبقات وجارٍ عليه الإمام ابن عساكر تقليدًا لشيوخه

(١) ينظر ص ٢٣٥ - ٢٣٨ من كتابنا: علم التحقيق للمخطوطات العربية.

وأسلافه[1]، وليس استئنافًا كما يظن بعض الناشرين والقرّاء. مثال ذلك ما تراه في النماذج الثلاثة التالية:

أ - ثابت بن جعفر بن أحمد

أبو طاهر النهاوَندي المُقرئ. سمع أبا عليٍّ الأهوازي المُقرئ، وحدَّث بصُورَ. سمع منه غيث بن عليٍّ.

ب - ثُرَيَّا بن أحمد بن الحسن

ابن ثُرَيَّا أبو القاسم الألْهاني البزَّاز. حدَّث عن أبي عليٍّ الحُسين بن إبراهيم بن جابر بن أبي الزَّمزام. روى عنه أبو سعد إسماعيل بن عليٍّ السمَّان، وعليُّ بن محمد الحِنَّائي، وعبد العزيز بن أبي طاهر، وأبو القاسم بن أبي العلاء.

جـ - ثابت بن عبد الله بن الزُّبير

ابن العوّام بن خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيٍّ أبو مُصعَب، ويقال: أبو حَكْمة، الأسدي.

حدَّث عن سعد بن أبي وقَّاص وقيس بن مَخْرَمة. روى عنه إسحاقُ والد عبَّاد بن إسحاق ونافعٌ مولى عبد الله بن عُمر. وفَد على عبد الملك بن مروان ثم وفدعلى سُليمان بن عبد الملك، فأدركه أجلُه في رجوعه.

فإن كان انقطاع بين عنوان الترجمة وما بعده وجب الفصل، كما ترى فيما يلي:

(١) أما إذا كان التعريف مطوَّلًا بسرد الشيوخ الكثيرين الذين روى عنهم المذكور، والتلاميذ الكثيرين الذين روَوا عنه، فإننا نضطر إلى تقسيم ذلك بما يناسب الفقرات المعتدلة.

أ - [تتمَّةُ ثابتِ بن أقرَمَ]

أخبرَنا أبو بكرٍ محمَّدُ بن عبد الباقي: **أنا** الحسن بن عليٍّ: **أنا** محمَّد بن العبَّاس: **أنا** أحمد بن معروف: **أنا** الحُسين بن الفهم: **أنا** محمَّد بن سعد: قال محمَّد بن عُمر: حدَّثني عبد الملك بن سُليمان، عن ضَمرةَ بنِ سعيد، عن أبي سَلمة بن عبد الرحمن، عن أبي واقد اللَّيْثي.

ب - حاجِبُ القُرَشي

حكى يزيد بن ربيعة، عن ربيعة بن يزيد، ونحن معه في جَنازة في سوق التَّمارِينَ، ونحن مع إسماعيل بن عُبَيد الله وحاجِبٍ القُرَشي.

٨- وضعُ ما أُضيف إلى عبارة الأصل بين قوسين معقوفتين، والتعليق على ذلك بأنه «تتمَّة» من النُّسخ أو «زيادة» من غيرها. وربما أغفلنا التعليق على ما زدناه استظهارًا لترميم ما يقتضيه سياق التعبير أو المعنى.

٩- ذِكرُ أسماء البحور الشعرية في التعليقات للأبيات الواردة في المتن، ووصلُ الكلام المتصل بها بعد الشعر دون قَطْعه، لجعلهما فقرة واحدة، خلافًا لما فرضته الأجهزة المعاصرة المخرِّبة واعتاده الناشرون جميعًا، وفصْلُه بفراغ لموضع كلمة في فِقرة جديدة إذا كان غير متصل. ومثال الحالين فيما يلي:

أ - خرج عليَّ محمَّدُ بن عليٍّ، وهو يقول: «ما ظننتُ أن تلد النساء مثلَكَ، يابنَ الزُّبير»، ثم تمثَّل:

إذا اللهُ أبقَى سَيِّدًا لِعَشِيـرةٍ ... فدَبَّرْتَها، حَتَّى تكونَ المُؤَخَّرا

ولم يلبث أن خرج عبد الله بن الزُّبير وهو يقول: «لله دَرُّكَ يابنَ الحَنَفِيَّة! فما رأيتُ كاليوم رجُلًا»، ثم تمثَّل البيتَ الذيَ تمثَّله محمَّد بن عليٍّ.

ب - عاش ثَوْبُ بنُ تُلْدةَ الأسدي، من بني والبةَ بن الحارث بن ثعلبة ابن دُودان بن أسد بن خُزَيمة، عشرين ومِائتَي سنةٍ، وأدرك مُعاوية بن أبي سُفيان، وقال في ذلك:

وإنَّ امرَأً قد عاشَ عِشرِينَ حِجَّةً ... إلَـى مِائتَـينِ، كُلَّهـا هُـوَ دائـبُ

لَرَهنٌ لأحـداثِ المَنـايا، وإنَّما ... يُلَهِّيهِ، في الدُّنيـا، مُنـاهُ الكَـواذِبُ

قال أبو حاتم: قال ابن الكلبي: سمعتُ أبي يقول: أدرك ثوب بن تُلدة مُعاويةَ، فدخل عليه فقال له: ما أدركتَ؟ وكم عُمرُكَ؟ قال: لا أدري.

١٠ - تفسيرُ الغريب مِنَ المفردات والتراكيب بلفظها ما أمكن، دون التعرُّض لغير ذلك مِنَ الأشباه والنظائر والأدلَّة والشَّواهد كما يفعل كثير مِنَ الناشرين الأغرار، مع عدم الإحالة على المصادر اللغوية، إلَّا إذا كان التفسير خاصًّا بما نُقل منه.

١١ - إثباتُ العبارات التي ظاهرُها خطأ في التعبير، مع التعليق عليها بالتوجيه النحوي المناسب. وقد عالج بعضَ هذا ابن عساكر - رحمه الله - ولكن الكثير الكثير بقي غُفْلًا قد يُوهِم الخطأ أوِ اللحن، فعلَّقنا عليه بما يحلُّ الإشكال. ومن ذلك حذف الفاء الربطة للجواب وأمثال[1]: ثلاثة أعين، وخمسة وعشرون غزوة، والجيش الذين، وتقُولها المسلمون، وتلقوني، وامتليْتُ.

١٢ - خلافُ المحدِّثين للغويين والنحاة في الأسماء الأعلام المركَّبة

(١) ينظر ما جاء في ص: ١٤ و٣٨ و٤٦ و٥٥ و٦٣ و٧٦ و٨٤ و٨٥ و٩٣ و٩٨ و١١١ و١٣١ و١٣٣ - ١٣٤ و١٤٦ و١٤٧ و١٥٢ - ١٥٤ و١٥٦ و١٥٧ و١٧٢ و١٨١ و١٩١ و٢٠٠ و٢١٨ و٢٢٧ و٢٣٥ و٢٣٦ و٢٤٩ و٢٥١ و٢٥٣ و٢٥٤ و٢٥٧ و٢٥٩ و٢٦٠ و٢٩٠ و٣٠٤ و٣٠٨ و٣١٢ و٣٢٠ و٣٢٦ و٣٢٨ و٣٥٨ و٣٦٧ و٣٦٨ و٣٧٠ و٣٨١ و٣٨٣ و٣٨٤ و٣٨٨ و٣٩٢ و٣٩٣ و٣٨٦ و٣٩٧ و٣٩٩ و٤٠٢ - ٤٠٤ و٤١١ و٤١٦.

وآخرها «وَيْه»، حملْنا على متابعة المحدِّثين؛ لأن «تاريخ مدينة دِمشق» يغلب عليه أسلوبهم، فضبطنا نحو «حَمْدُويَهْ وحَفصُويَهْ وخُمارُويَهْ» - على مذهبهم[1]، كما يقتضي النهج العلمي. ثم أشكلتْ علينا هي وأمثالها، مِنَ الأعلام الأعجمية المختومة بهاء ساكنة نحو «مَنْدَهْ وماجهْ» إذا وقع بعدها حرف ساكن أيضًا. والمحدِّثون في قراءة مثل هذا السياق يقفون على آخر تلك الأسماء بسكتة، ليستأنفوا ما بعده، وإذا كان بعده همزة وصل جعلوها بلفظ همزة القطع، فاجتهدنا نحن إجراء ذلك مُجرى الممنوع مِنَ الصرف. هذا مع أن شأن «ويه» عند النحاة أيسر لأنه مبني على الكسر مثل: سِيبَوَيْهِ. والله أعلم بالصواب.

١٣ - إثباتُ صوَر في التعليقات، لبعض النماذج من العبارات والأسطر الغائمة أو الخفيَّة أو المختلَّة في الأصل والنُّسخ، لبيان ما تعذَّرت قراءته، وهو كثير جدًّا اخترنا قليلًا منه للدلالة على ما عانينا فيه، وبذلنا من الجَهد والبصر والتفكير والتقدير وإرهاق الأعصاب. ترى ذلك في نحو:

هذا عدا عشرات المواضع التي اختلَّ فيها النص أو التعبير، فصحَّحناه

(١) المحدِّثون لا يحبون «وَيْهِ» لأنه عندهم اسم شيطان، ولهم في ذلك حديث ضعيف، فيتصرفون في اللفظ على الصورة التي أوردناها. المقاصد الحسنة ص٧٧١ وتدريب الراوي ١: ٣٣٨ وبغية الوعاة ١: ٤٢٨.

بما جاء في المصادر المعتمدة المُحال إليها في التعليقات، أو بما تيسَّر لنا اقتراحه من رحمة الله تعالى وتوفيقه.

١٤- الاحتياطُ في التعبير عما لم يرد في الأصل المعتمد وغيره مِنَ النُّسخ والمصادر، بتجنُّب لفظ «سَقَطَ» احترامًا للنصوص النبوية المقدَّسة وما يتصل بها من مثل هذا اللفظ، والتعبيرُ عن ذلك بالقول عنِ الكلمة الواحدة المفقودة: «ليست في كذا»، وعما كان أكثر من كلمة بإيراد أوله وآخره بين أقواس التنصيص مع نقاط ثلاث، إشارة إلى ما حذفناه اختصارًا، وبالتعبير عن ذلك بالقول: ليس «...» في كذا.

١٥- تمييزُ النصوص من الأسانيدِ والتفسيرِ وعباراتِ الرواية بحرف كبير للنصوص وصغير لما سواها، وبأقواس للآيات الكريمة مزهَّرة خالية من الصُّلبان المقحمة فيها زورًا وبهتانًا، وبأقواس التنصيص المناسبة لغير ذلك، كيلا يكون التباس وتداخل. وذلك نحو:

أ - قال الله تعالى: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾، وقال الله ﷻ: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ب - وكان من دُعاء رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارزُقْني عينَينِ هَطَّالَتَينِ، تبكيانِ بذَرفِ الدُّمُوعِ وتَشفِيانِي» - وفي حديث داوُد: «وتَشفِيانِ» - «مِن خَشْيتِكَ، قَبلَ أن تكُونَ الدُّمُوعُ دمًا والأضراسُ جمرًا».

جـ - وعن ثُمامة بن حَزْنٍ القُشَيري قال: سألتُ عائشة عنِ النَّبيذ فدعت جارية حبشيَّة، فقالت: «سَلْ هذِهِ. فإنَّها كانَت تَنبِذُ لِرَسُولِ الله ﷺ» - زاد ابن المأمون: «فسألتُها» - وقالا: «فقالَت: كُنتُ أنتبِذُ» - وقال الصَّرِيفيني: أنبِذُ - «لِرَسُولِ الله ﷺ في سِقاءٍ مِنَ اللَّيلِ وأُوكِيهِ»، وقال الصَّرِيفيني: ثُمَّ أوكِيهِ، «فإذا أصبَحَ شَرِبَ مِنهُ». زاد الصَّرِيفيني: وفي الحديث كلامٌ أكثر من هذا لم أضبِطْه، عن عليِّ بن الجَعْد.

د - وخطبَنا عُمر بن الخطَّاب بالجابية فقال: يا أيُّها النَّاس، قام فينا رسول الله ﷺ مَقامي فيكم فقال - وقال ابن حمدان: مَقامي فيكم اليومَ فقال -: «أحسِنُوا إلَى أصحابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم. ثمَّ يَفشُو الكَذِبُ حَتَّى يَشهَدَ الرَّجُلُ علَى الشَّهادةِ لا يُسأَلُها» - وفي حديث الباغَنْدي: «لا يُستَشهَدُ» - «ويَحلِفَ علَى اليَمِينِ لا يُسأَلُها. فمَن أرادَ» - زاد الباغَنْدي: «مِنكُم» - وقالا: «بُحبُوحةَ الجَنَّةِ فلْيَلزَمِ الجَماعةَ. فإنَّ الشَّيطانَ مَعَ الواحِدِ، وهُوَ مِنَ الاِثنَينِ أبعَدُ. ولا يَخلُوَنَّ أحَدُكُم بامرأةٍ، فإنَّ الشَّيطانَ ثالِثُهُما». انتهى حديث الباغَنْدي، وزاد أبو يَعْلَى: «ومَن سَرَّتهُ حَسَنتُهُ وساءَتهُ سَيِّئَتُهُ فهُوَ مُؤمِنٌ».

١٦- توظيفُ علامات الترقيم - وكلٌّ منها يدل على معنى جملة أو أكثر في التركيب[1]، كما ترى في النصوص المتقدِّمة والتالية من شعر ونثر - بشكل علمي منظَّم يساعد على فهم الجمل والتراكيب والعبارات. ولا سيَّما موقع علامة الاستفهام الخاصَّة به، كما في: «قلتُ: وما هي؟ جعلني الله فِداك، يا أميرَ المؤمنين. وكيف أصنع في مالي يا رسول الله؟ وكيف الصلاةُ كانت مع رسول الله ﷺ؟». وكذلك علامة التعجُّب التي لا تقع إلَّا بعد ما فيه معناه الاصطلاحي أو التعبيري، كما جاء في الصِّيغ المعروفة من لغة العرب وعلمَي النحو والبلاغة.

١٧- وضعُ النقطتين «:» في الإسناد للدلالة على النَّصِّ قبل ما سيورده الرَّاوي من قول شيخه، كالذي تراه فيما يلي: «**أخبرَنا** أبو القاسم

(١) انظر علامات الترقيم في اللغة العربية ص ١٣ - ٦٠.

هبة الله بن عبد الله: **أنا** أبو بكرٍ الخطيب: **أنا** أبو الحسن عليُّ بن أحمد بن محمَّد بن بكرانَ الفُوِّي بالبصرة: **أنا** أبو عليٍّ الحسن بن محمَّد بن عُثمان الفَسَوي: **نا** يعقوب بن سُفيان: **نا** عَمرُو بن عُثمان بن كثير بن دِينار: **نا** بقيَّة: **نا** ثابت بن العَجلانِ». فتكرارُ وضع النقطتين هنا، لا الفاصلة كما اعتاد أساتذتنا الأكارم فيما نشروا من «تاريخ مدينة دمشق»، هو الراجح؛ لأن ما يرد بعدهما هو قول نصِّيٌّ، والفاصلة في هذا الموقع لا تفيد ذلك، بل تفيد أن ما بعدها هو استئناف أو عطف بحرف محذوف أو ما لستُ أدري.

وقد استشرتُ في ذلك علماء الحديث والمختصِّين فيه بمدينة حلب، فكان رأيهم أن المحدِّثين يزيدون في ذلك الموقع لفظ «قال» عند القراءة لبيان المراد، وأن وضع النقطتين هو الصواب. ولذا ضبطتُ صفحة كاملة بما أشاروا، وبعثت بها إلى سيادة أمين مجمع اللغة العربية بدمشق أعرض المسألة للمداولة، فكانت الموافقة الكريمة على ذلك.

١٨- التعبيرُ عما زاده أحد المحدِّثين من اسم لشيخ تلقَّى عنه الرواية نفسَها في إسنادها المذكور، بالقول «زاد فلان»، التعبيرُ عن ذلك يعني أن الجملة حالية بين فاصلتين، لا اعتراضية بين خطَّي اعتراض كما يظن بعض الناشرين الأغرار والقرَّاء. ترى هذا في نحو: «**أنبأنا** أبو الغنائم محمَّد بن عليٍّ، ثم حدَّثَنا أبو الفضل بن ناصر: **أنا** أبو الحُسين بن الطُّيُوري وأبو الفضل بن خَيرونَ ومحمَّد بن عليٍّ – واللفظ له – قالوا: أخبرَنا أبو أحمد الغَنْدَجاني، زاد ابن خَيرونَ: ومحمَّدُ بن الحسن الأصبهاني، قالا»، وفي نحو: «**أنبأنا** أبو الغَنائم محمَّد بن عليٍّ، ثمَّ حدَّثَنا أبو الفضل الحافظ: **أنا** أحمد بن الحسن والمبارك بن عبد الجبَّار ومحمَّد بن عليٍّ – واللفظ له – قالوا: **أنا** أبو أحمد، زاد أحمد: ومحمَّدُ بن الحسن، قالا».

فمثل هذا تكون فيه جملة «زاد» حاليَّة، والتقدير: «زائدًا ابنُ خيرونَ، وزائدًا أحمدُ»، وما بعدَ الجملة المذكورة هو مما جاء في روايتَي ابن خيرونَ وأحمد. فإذا جُعلت تلك العبارات بين خطَّي اعتراض أوهمتْ أن ما بينهما هو زيادة في إسناد آخر لا صلة له بما ذُكر قبلُ. وهذا النَّسق الإسنادي غير ما يورده الرُّواة من زيادات في رواياتهم اعتراضًا أو استئنافًا، كالقول:

أ – زاد ابن المُسلِمة في رِوايته: وقال أيضًا جميل في ذلك:

وأيُّ مَعَـدٍّ كانَ فَيْءَ رِماحِـهِ ... كَما قد أفأنا، والمُفاخِرُ مُنصِفُ؟

ب – **وأخبرَنا** خالي أبو المَعالي محمَّد بن يحيى بن عليٍّ القاضي: **أنا** عليُّ ابن الحسن بن الحُسين الفقيه: **أنا** أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد بن الحاجِّ الشاهد قراءة عليه وأنا أسمع: **أنا** أبو الفضل محمَّد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث قراءة عليه بالرَّملة: **نا** الحسن بن أحمد بن حبيب الكِرماني: **نا** عبد الله بن واقد الباهلي – ح – قال: **وأنا** أبو العبَّاس الإشبيلي قال: **ونا** أبو الحُسين ثَوابة بن أحمد بن عيسى الموصلي إملاء: **نا** أبو يَعْلَى أحمد بن عليٍّ بن المثنَّى: **نا** عبد الله بن محمَّد بن واقد الباهلي أبو محمَّد المؤدِّب: **نا** أبو حبيب الغَنَوي، عن بَهْزِ بن حَكيم، عن أبيه، عن جدِّه قال:

قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثةٌ لا تَرَى أعيُنُهُمُ النَّارَ» – زاد ابن الحارث: «يَومَ القِيامةِ»، ثم اتفقا فقالا –: «عَينٌ بَكَت مِن خَشْيةِ الله، وعَينٌ حَرَسَت في سَبِيلِ الله، وعَينٌ غَضَّت عَن مَحارِمِ الله».

١٩- التقيُّدُ برموز الإسناد كما جاءت في أساليب المحدِّثين وكما ثبَت في الأصل الخطِّي المعتمد، وإغفال ما جاء في غيره إلَّا إذا كانت له دلالة خاصَّة. فـ «**أنا**» بمعنى: أخبرَنا، و«**نا**» بمعنى: حدَّثنا، نجعلهما بلون قاتم لتمييزهما من الكلمات الأُخرى. ونضبط ما جاء من «أخبرَنا» و«حدَّثنا»

بفتح الحرفين الأخيرين مِنَ الفعلين، لئلَّا يُظنَّا بالسكون. وكذلك التقيُّد بألفاظ العنعنة والقول كما جاء في الأصل أيضًا.

٢٠- جعلُ الرمز «ح» بلون قاتم كذلك، وهو يَرِد بين أسانيد متن واحد، للتحويل من إسناد إلى آخر. نعم لقد اختلف علماء الحديث في تفسير هذه الحاء، فقيل: هي رمز لفظ «صحّ» أي: الإسناد التالي صحيح فلا غلط ولا سقط، لئلَّا يُتوهَّم أن حديث الإسناد الأول قد أُغفل ذِكره نسيًا أو جهلًا، ولئلَّا يُركَّب الإسناد الثاني على الأول فيُجعلا واحدًا. وقيل: هي مختصرة من لفظ «حائل» حائلة حاجزة بين الإسنادين، أو مختصرة من كلمة «الحديث»، وكأن المراد هو: الحديث الحديث. وقد توهَّم بعضهم أنها «خ» لبيان أن ما بعدها إسناد آخر للمتن نفسه[1]. ومذهب الجمهور ما ذكرنا قبلُ، مِنَ النصِّ على أن ما قبلها وما بعدها هما لحديث واحد هو التالي بعدُ.

وعلى هذا فالمراد بـ «ح»[2] هو جملة اعتراضية بين عبارات الإسنادين المذكورين قبلها وبعدها، بمعنى: هنا تحويل من إسناد إلى آخر. وقد أَلِف أساتذتنا الأكارم فيما نشره مجمع اللغة العربية الكريم من «تاريخ مدينة دمشق» أن يقطعوا التعبير، ويثبتوا الـ «ح» في أوَّل فقرة جديدة. وهذا يوهم ما حذَّر العلماء منه، أي: الظنَّ أن الإسناد الأول لا يُعرف متن حديثه. فالواجب إذًا أن يعبَّر بها يحقِّق المراد الاصطلاحي ضمن الأسانيد. أعني الاعتراض بين الإسنادين. ولذا أوجبنا على أنفسنا أن نضع الحرف «ح» بين

---

(١) شرح التبصرة والتذكرة ١٦٢، فتح المغيث في شرح ألفية الحديث ٢: ٢١٦، المصباح في أصول الحديث ١٨٧.

(٢) كثيرًا ما وهم ناسخا «س» و«م» في فهم هذا المصطلح، وعبرا عنه بالقول: «حينئذ» أو «انتهى». ونحن أغفلنا الإشارة إلى كثير من ذلك في التعليقات، لوفرته.

خطَّي اعتراض، متابعِين سَرْدَ الأسانيد على أنها لمتنٍ واحدٍ[1]، كما ترى فيما التالي:

أخبرَنا أبو بكرٍ محمَّدُ بن عبد الباقي قال: قُرئ على أبي الحسن عليِّ بن عيسى بن إبراهيم الباقلَّاني المُقرئ: **أنا** أبو بكر محمَّد بن إسماعيل بن العبَّاس إملاء، وأخبرنا أبو الحسن بن البَقْشَلان: أنبأنا محمَّد بن أحمد بن الآبَنُوسي - ح - وحدَّثنا أبو عبد الله يحيى بن الحسن لفظًا وأبو القاسم بن السَّمَرْقَندي والمُبارك بن أحمد بن عبد العزيز قراءة، قالوا: **أنا** أبو الحُسين بن النَّقُور: أنبأنا محمَّد بن عبد الله بن الحُسين ابن أخي مِيمِي - ح - وأخبرَنا أبو القاسم بن السَّمَرْقَندي وأبو العلاء الخَصيب بن المُؤمَّل بن محمَّد، قالا: **أنا** أبو الحُسين بن النَّقُور: أنبأنا عُمر بن أحمد الكتَّاني - ح - وأخبرَنا أبو القاسم بن السَّمَرْقَندي: **أنا** أبو الحُسين بن النَّقُور وأبو القاسم بن البُسري وأبو نصر الزَّينبي - ح - وأخبرَنا أبو المَكارم أحمد بن عبد الباقي بن مُبارك: أنبأنا أبو الحُسين بن النَّقُور وأبو نصر الزَّينبي، وأخبرَنا أبو المُظفَّر محمَّد بن محمَّد بن رُزَيق القزَّاز وأبو القاسم إسماعيل بن محمَّد بن الفضل: أخبرَنا الشريف أبو نصر محمّد بن محمَّد بن عليٍّ الزَّينبي - ح - وأخبرَنا أبو البركات الأنماطي: أنا عبد العزيز بن عليِّ بن أحمد ابن بِنتِ السُّكَّري، قالوا: **أنا** أبو طاهر المُخلِّص: أنبأنا عبد الله بن محمَّد: **نا** حاجِب بن الوليد، زاد بعضهم: أبو أحمد: **نا** الوليد بن محمَّد المُوقَّري، عنِ الزُّهري، عن أنس قال.

❁

---

(١) أشكل عليَّ موضعان من هذا في ص ٩ و٢١٣ ولم أجد لهما وجهًا، فجعلتهما بدء فقرتين، لعل أحد المحققين يجد لهما وجه صواب. والله أعلم.

هذا ما يسَّره الله ﷻ من لمسات في عمليات التحقيق، بسطتُ وصفها وكيفية إجرائها، آملًا أن ينظر فيها زملائي وطُلَّابي، ليُغْنوا بها أساليب النشر للنصوص النبوية المقدَّسة، مضيفِين ما يحسِّن مقترحاتي هذه دون ذيول غير مفيدة، لِما يناسب المَقام المشرَّف لرسولنا الكريم ﷺ وللعمل التحقيقي المبارك. وقد استعنتُ في استخراجها وتوظيفها باستشارة طُلَّابي الأكارم، ومنهم مختصُّون في علوم الحديث والفقه والقراءات والإفتاء والأصلَين - شكر الله سعيهم وجزاهم خير الجزاء - فأمدُّوني بالموافقة والتأييد، وبمصادر علمية مطبوعة تزكِّي ذلك وتغنيه بالصَّواب والتسديد.

ولا أكتمكم - أيها الإخوة الأكارم - أنه عندما اطَّلع أصحابي وطُلَّابي الأحباب على أوضاع النُّسخ المعتمدة وكثرة المشكلات فيها، أبدَوا تهيُّبهم مِنَ العمل الموكَل إليَّ، ونصحوني بالاعتذار عنه؛ كراهية الوقوع في مآزق وهَنات غير لائقة بوفاء أعمالي المعروفة، وقد كدت أركن إلى نصيحتهم وراودتُ نفسي مرارًا في ذلك، ثم رأيتُني مضطرًّا إلى السير في الطريق الوَعْر المقدَّر، واعتذرتُ لهم بما كان من عقد شرعي مُلزِم. ولا أُبالغ إذا زعمت أنني قرأت هذا النص الكريم وراجعته ونظرت فيه أكثر من كل كتاب أخرجته قبل، لِتجنُّب ما في موادِّه من مشكلات ومعضلات وخبيئات تستدعي الوهَم والخَطَل.

ولا أُبالغ أيضًا إذا ذكرت أنني لم أجد مثل ما في موادِّ هذا العمل المبارك، مِن اضطراب في النُّسخ لفظًا وتركيبًا وعبارة ونسقًا، ومن تصحيف وتحريف ونقص وزيادة، وتقديم وتأخير وتقحُّمات وتصرُّفات في التعبير، وأنني كنت أعالج ذلك بعون الله - جلَّ وعلا - وبروح العالم الصبور

المتقن الوفيِّ، وأنا أردِّد قول الشاعر(١):

يَستَصعِبُ الأمرُ أحيانًا، بِصاحِبِهِ ... ورُبَّ مُستَصعِبٍ قَد سَهَّلَ اللهُ

ولقد اطمأننت بعد هذه الجهود كلها أن ما أقدِّمه الآن هو أقصى مبلغ العلم ونهاية القدرات المستطاعة، وعلى الله ما لا نستطيع. فهذا منتهى الطاقة والنية الخالصة والجُهد الكبير، وأبى الله أن يتمَّ إلَّا كتابَه الكريم. ومِن ثَمَّ جهزنا الجزأين الحادي عشرَ والثاني عشرَ على غرار ما انتهينا إليه، من صَنيع أساتذتنا وما ألهمنا الله إياه مِنَ التوجيهات، ورفعناهما إلى السيد رئيس المجمع الدكتور مروان المحاسني، فتقبلها الزملاء بأحسن قبول وتقدير(٢)، ورغبوا إلينا أن نتابع العمل لتحقيق ما بقي من السِّفر المبارك، فلَبَّى الدكتور أحمد فوزي الرغبة الغالية، وأجبت بأنه يسعدني أن ألبيها، لولا أنني مُنْهَمِكٌ في إنجاز «الإعراب المنهجي للقرآن الكريم»، وهو يقتضي مني بضع سنوات، لا تسمح لي بعمل آخر.

واللهَ أسأل أن يتقبَّل نيَّاتِنا جميعًا وخِدماتِنا للسُّنَّة المشرَّفة بأحسن القبول والإكرام، ويَهدي إخواننا العاملين في ميادين نشر النصوص المطهَّرة إلى رفع مستوى العمل والصعود به في المراتب اللائقة بمنزلته الفائقة. وهو من وراء القصد، وله الحمد والشكر أولًا وآخِرًا.

* * *

(١) انظر تاريخ دمشق ١١: ٣٦١.
(٢) نُشر الجزآن بحمد الله - تعالى - في أجمل حُلة وأجود إخراج، ولكن الفنان الذي يُشغل بمفاتن الثقافة والحضارة الغربيتين عنا وقع في أخطاء لغوية جاءت على الغلاف والصفحة المنقولة عنها أيضًا، ليحقق القول المشهور: أبى الله أن يصحَّ إلَّا كتابه.

تقنيات (تنقية المياه) في المؤلفات الطبية العربية حتى نهاية القرن السابع الهجري

د. م. مها الشعّار(*)

مقدمة:

ربّما كان السّعي وراء المياه النّقية من أول الهموم التي عانى منها الإنسان منذ القديم، فالماء النظيف يعني البقاء، كما يعني ازدهار الحضارات وتطوُّرها.

ولعل الأطباء هم أول مَن تنبَّه منذ أقدم العصور إلى أهميَّة شرب الماء النظيف، ولاحظوا تأثيره على صحة الإنسان، وأكدوا أهميَّة تنقية المياه قبل شربها إذا كانت ملوَّثة، وحاولوا معرفة الأسباب المُمْرِضة الموجودة في المياه الملوثة، ولكن لم يتوصلوا بشكل حاسم وواضح إلى الأسباب الحقيقية للتلوث المُمْرِض (الجراثيم)، لعدم وجود أدوات متطورة تساعدهم على رؤية تلك الكائنات الدقيقة التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، وبالمقابل حاولوا ابتكار طرقٍ جديدة لضمان الحصول على مياه نقية نظيفة.

ساد الاعتقاد في عصرنا الحاضر بأن عمليات المعالجة المستخدمة في تنقية المياه هي علم حديث بحت، ونُسي دور العلماء العرب في هذا المجال، فلقد كثرت الدراسات التي تناولت جوانب مختلفة من تاريخ العلوم العربية، غير أن دراسات التراث الهندسي البيئي بقيت محدودة، وربما يعود سبب ذلك إلى قلّة ما ورد عنها في الكتب التراثية. وتبقى صعوبة جمع المعلومات

(*) معهد التراث العلمي العربي - جامعة حلب.

من بطون المصادر العربية من أكبر العقبات التي تواجه الباحث لقلة المراجع التراثية المختصَّة.

يقدم هذا البحث دراسة هندسية للتقنيات التي ابتدعها الإنسان في الحضارات القديمة، محاولًا الحصول من خلالها على مواصفات مقبولة للمياه، ثم توضيح دور بعض الأطباء العرب الذين درسوا تدبير صحة الأبدان وحفظها، وكتبوا عن أهم الأسباب المؤثرة فيها كالطعام والهواء والماء، فقد ذكر بعضهم - وهم قلائل - بعض الطرق التي استعملوها في تنقية أنواع المياه المختلفة، وطوَّروا الطُّرق التقليدية القديمة التي كانت معروفة من قبل، وابتكروا طرقًا جديدة في هذا المجال، فأسهموا في مجال تقنية تنقية المياه وتطويرها.

يدرِّس البحث تقنية تنقية المياه في المؤلفات الطبية حتى نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ففي هذه الفترة الزمنية ظهرت أغلب الدراسات والإنجازات الحضارية العربية المهمَّة.

أنواع المياه في الطبيعة:

*** في الحضارات القديمة:**

قسَّم الأطباء المياه الموجودة في الطبيعة إلى أنواع، وعلى أساس هذا التقسيم تم اختيار أفضل أنواع المياه للشرب، ويعدُّ الطبيب اليوناني **أَبُقْراطُ** المكْنَى بأبي الطِّبِّ (٤٦٠ ق. م- ٣٧٧ق.م)، أولَ مَن تحدث بهذا الموضوع كما تذكر المصادر المتوفرة بين أيدينا.

وكان الداعي لحديثه هذا - كما يقول - نصيحته لمن أراد التعمُّق في الطب، فينبغي له أن يفعل عدة أمور منها: «أن يتعرف أيضًا صفات المياه

التي تختلف في الخواصِّ كما تختلف في الطَّعم والوزن»[١]، والهدف من هذا الفعل هو أن «تأثيرها على الصحة عظيم»[٢].

يشير أبقراط إلى أن مصدر المياه في الطبيعة هو:

«**مياه المطر**: [وهي] أخفُّ المياه وأعذبها وأرقُّها وأصفاها؛ لأن الشمس إنما تجذب من الماء ما كان أرقَّ وأخفَّ، ويدل على ذلك تكوُّن الملح، فالجزء المالح لكثافته وثقله يبقى ويكوِّن الملح، والجزء الأرق لخفته تجذبه الشمس»[٣].

«**ومياه الثلج والجليد**: [و] كلها رديئة، فإن الماء إذا جمد فقَد ما له مِن الصفاء والخفَّة والعذوبة، ولا يبقى منه إلا ما هو أشد كُدُورةً وأثقل»[٤].

ثم يُقسم المياه بعد وصولها إلى سطح الأرض إلى عدة أقسام فرعية متشعِّبة مختلطة، دون الاعتماد على منهج واضح في تقسيمها، فيقول:

النوع الأول: وهي المياه الراكدة في المستنقعات والسِّباخ والبطائح والبِرَك، وتتصف بأنها «تكون - ضرورة - في الصيف غليظة، وكريهة الرائحة، ولكونها غير جارية إنما آتية من المطر، ولتَسخُّنِها بحرارة الشمس هي كَدِرة مُضِرَّة بالصحَّة، صالحة لتوليد المرار، وفي الشتاء تتكدر بالثلج والجليد، فتصير صالحة لتوليد البلغم»[٥].

(١) كتاب الأهوية والمياه والبلدان، أبقراط، استخرجه إلى العربية شبلي شُمَيِّل، طبع في مطبعة المقتطف، القاهرة، سنة ١٨٨٥م، ص١٧.
(٢) المصدر السابق ٢٦.
(٣) المصدر السابق ٣٠.
(٤) المصدر السابق ٣٢.
(٥) المصدر السابق ٢٦.

النوع الثاني: مياه العيون، وتكون على قسمين:

- **القسم الأول**: ويشمل المياه المعدنية التي تكتسب طعم المعادن التي تمر عليها وصفاتها، فتكون رديئة، «وأضر منها المياه الآتية مِنَ الصُّخور لقساوتها، أو من أرض مياهها سخنة حديدية أو نُحاسية أو فضية أو ذهبية أو كِبْريتية أو شَبِّيَّة أو قارِّية أو نطرونية لحرارتها، فمياه مثل هذه الأرض غير موافقة لأنها قاسية سخنية يعسر مرورها بالبول وتحبس البطن»[1].

- أما **القسم الثاني**: فيضم المياه التي «تَصُبُّ من أماكن مرتفعة والأنجاد الأرض فإنها عذبة صافية ويطفو عليها النبيذ الخفيف وهي تَسْخُن في الشتاء وتَبْرُد في الصيف، وذلك دليل على أنها آتية من أعمق الينابيع»[2].

النوع الثالث: وهي المياه المالحة، يقول عنها أبقراط: «وأما المياه المُرَّة المِلْحة القاسية فلا تصلح للشرب»[3].

*** في المؤلفات الطبية العربية:**

اعتمد الأطبَّاء العرب التقسيم السابق الذي عرفوه من خلال مشاهداتهم للعوامل الطبيعية المحيطة بهم، ومن قراءاتهم لكتب أبقراط المترجَمة، غير أن هذا التقسيم بدأ يصبح أكثر وضوحًا في أذهانهم، فقسم بعضهم أنواع المياه تبعًا لعوامل متعددة تؤثر على نوعية الماء، كنوع الأرض التي تنبع منها الماء، وهل المياه ظاهرة على سطح الأرض أم باطنية، وهل هي جارية أم راكدة، يقول **أبو زيد البلخي** (٢٣٦- ٣٢٢هـ/ ٨٥٠- ٩٣٤م)، في كتابه «**مصالح**

(١) المصدر السابق ٢٨.

(٢) المصدر السابق ٢٨.

(٣) المصدر السابق ٢٨.

الأبدان والأنفس»: «وأما المياه فإنها تختلف أيضًا بثلاث جهات: **أحدها** بالتُّرْب، التي تكون منابعه من أرضين طيبةِ التربِ عذبة فتخرج عذبة طيبة، أو تخرج من أرضين تكون تُرْبها مالحة أو كبريتية وما أشبه ذلك مِنَ الطُّعوم فتقبل تلك الطُّعوم منها.

والثَّانية بجهة ظهورها على وجه الأرض فتكون سيحًا، أو تغور تحتها فتستنبط مِنَ القُنِيِّ والآبار.

والثَّالثة أن توجد جارية على وجه الأرض كالأنهار، أو راكدة عليها كالبطائح والنقايع والغُدْران»[1].

أما الطَّبيب **أبو بكر الرازي** (٢٥١- ٣٢٠هـ/ ٨٦٥- ٩٢٥م)، ففصل أنواع المياه الرديئة الطَّعم في الطبيعة لتأثيرها السيئ على صحة الإنسان، يقول: «فالمياه الرديئة: هي المياه التي فيها كيفيات رديئة كالقابض العفص، والمالح، والكبريتي، والمعدني، والكدر، والغليظ جدًّا، والرقيق جدًّا، والعفن... والماء النفطي والقِيري فحالُها حالُ الكبريتية، والماء المُرُّ، والماء المنْتِن، والماء الآجامي»[2].

(١) مصالح الأبدان والأنفس، أبو زيد البلخي، أحمد بن سهل (٢٣٦- ٣٢٢هـ/ ٨٥٠- ٩٣٤م)، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، يصدرها فؤاد سزكين، سلسلة عيون التراث، المجلد ٢، طبع بالتصوير (الفاكسميلي)عن مخطوطة آيا صوفيا ٣٧٤١، فرانكفورت، ألمانيا، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٩.

(٢) منافع الأغذية ودفع مضارها، الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا (٢٥١ - ٣٢٠هـ/ ٨٦٥ - ٩٢٥م)، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية المنشأة بحوش عطا، بجمالية مصر، ١٣٠٥هـ، ص ١٤ - ١٥.

ووضح بعد ذلك الأصناف التي تندرج تحت كل نوع:

* «فالماء القابض: في أكثر الأمر شَبِّي، أو زاجي، أو حديدي، أو ما يجري عبر الحجارة التي فيها طعم هذه، أو أرض فيها بلوط وخرنوب كثيرًا، أو ضروب مِنَ الأشجار القابضة العفصة.

* والماء المعدني: هو الماء الجاري على المعادن، فهناك الماء القابل لكيفية النُّحاس، وهناك القابل لكيفية الحديد، وهناك الماء الرَّصاصي، وهناك الماء الذهبي والفضي»[1].

وتنبَّه الأطباء العرب إلى العلاقة المتبادلة بين الماء والهواء المجاور له، فيُعدُّ **التميمي** (كان حيًّا عام ٣٩٠هـ) من أوائل الأطباء الذين تنبَّهوا إلى علاقة الماء بالهواء المجاور له، ومدى تأثُّره به في حال تلوُّثه، فكان سابقًا لعصره وكان من الذين تحدثوا عن البيئة وعوامل تلوثها، يقول: «إن الجو إذا فسد بنوع من أنواع الفساد الداخلية عليه، فلا محالة أنه يُفسِد لأجل ذلك أيضًا الماء المجاور لتلك الأهوية الفاسدة، لقبوله ما يحدثه فيه الهواء من الحر، أو البرد، أو العَفَن، أو الغِلَظ، إذ الماء والهواء عنصران متجاوران يستحيل أحدهما إلى الآخر، ويدخل أحدهما في أجزاء الآخر فيشابكه ويمازجه»[2].

وتميَّز **الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا (٣٧٠- ٤٢٨هـ / ٩٨٠- ١٠٣٧م) بمحاكمته العقلية للأمور**، فلا يذكر أمرًا إلا ويحاول تقديم تفسير علمي لسبب حدوثه، فها هو يوضح بصيغة علمية دقيقة سبب الاختلاف

(١) المصدر السابق ١٥.

(٢) مادة البقاء، التميمي، محمد بن أحمد (كان حيًّا عام ٣٩٠هـ)، تحقيق يحيى شعار، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٨٥.

بين أنواع المياه رغم كونها جميعًا من مصدر واحد هو ماء المطر، فيقول: «المياه مختلفة لا في جوهر المائية، ولكن بحسب ما يخالطها، وبحسب الكيفيات التي تغلب عليها... ويجب أن تعلم أن الماء في حد مائيَّته متشابهُ الأجزاء في اللَّطافة والكثافة؛ لأنه بسيط غير مركَّب، لكن الماء يَكْثُف إما باشتداد كيفية البرد عليه، وإما بمخالطة شديدة مِنَ الأجزاء الأرضية، والتي لفرط صغرها ليس يمكنها أن تنفصل عنه وترسُب فيه»[1].

ومن المعروف في وقتنا الحاضر أن مياه الأمطار هي مياه مقطَّرة تتساقط دون شوائب، فقد أظهرت الدراسات الحديثة أن البرق يُطهر قطرات المطر من أية شائبة عند تكوينها مِنَ السُّحب؛ لأنه يُولد غاز الأوزون المطهِّر، ولكن خلال تساقط مياه الأمطار إلى الأرض قد تلتقط بعض الأكسجين والغازات الأخرى، وكذلك المواد العضوية المتطايرة، كما يمكن تلوُّثها عند هبوطها نتيجة تلوث الهواء[2].

ويتحدث **ابن سينا** عن الماء عندما يختلط بالأجزاء الأرضية التي لصغرها لا تنفصل عن الماء ولا ترسُب فيه، وتسمى هذه الأجزاء في وقتنا الحاضر «المواد الغروانية»: وهي معلَّقات لجزئيات غير قابلة للانحلال في الماء وذات حجم يتراوح بين ١ ميلي ميكرون و ١ ميكرون[3]، لذا لا يمكن

(١) القانون في الطب، ابن سينا، الشيخ الرئيس، الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي، (٣٧٠ - ٤٢٨هـ / ٩٨٠- ١٠٣٧م)، الجزء الأول، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٩٨.

(٢) مضار وفوائد المياه المقطرة للإنسان والنبات، عبد الفتاح الحسيني، مركز فقيه للأبحاث والتطوير، ١٩٩٧م، ص٣.

(٣) معالجة مياه الشرب والمياه الصناعية، سلوى حجار، منشورات جامعة حلب، كلية الهندسة المدنية، ١٩٨٥م، ص ٩٧.

التخلُّص منها بالترسيب البسيط، ولكنها تحتاج إلى معالجة أخرى سنتناولها بالتفصيل فيما بعد.

عندما تختلط هذه الأجزاء الأرضية بالماء، يتحول الماء إلى حالة تسمَّى اليوم: الحالة الغروية (Colloid)، وفيها تبدو أنماط مِنَ المزائج متجانسة للعين المجرَّدة، ولكن بفحصها بالمجهر الخارق (ultra microscope) يتبيَّن بوضوح عدم تجانسها[1].

والملْفِت للنظر أن هذه الحالة التي ذكرها **ابن سينا** وشرحها رغم عدم وجود مجاهر ذات قوة تكبير خارقة، لم يتعرف العالَمُ عليها إلا على يد العالِمِ توماس غراهام Thomas Graham الكيميائي الأسكتلندي نحو عام ١٨٦٠م[2].

شرح **ابن سينا** سبب كون المياه الجارية في أرض طينية خيرًا من تلك الجارية في أرض صخرية، وذكر الشروط التي يجب أن تتوفر في هذا الطين حتى يكون مُنَقِيًا للمياه، فقال: «واعلم أن المياه التي تكون طينية المَسيل خير مِنَ التي تجري على الأحجار، فإن الطين يُنْقي الماء، ويأخذ منه الممزوجات الغريبة ويُروِّقه، والحجارة لا تفعل ذلك، لكنه يجب أن يكون طين مَسِيلها حرًّا، لا حمأة، ولا سبخة، ولا غير ذلك»[3].

ولقد تبين للعلماء في العصر الحديث أن الطين يتألَّف من جزيئات شديدة الامتزاز لذلك يُصفِّي الماء جيدًا، كما أنه يعد مستنبتًا طبيعيًّا تنمو

(١) مادة الغرويات، الموسوعة العربية، غدير زيزفون، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، ١٣: ٣٢٧.
(٢) المصدر السابق ١٣: ٣٢٧.
(٣) القانون في الطب، ابن سينا ١: ٩٨.

عليه كائنات حية ودقيقة تقوم بتخليص الماء مِنَ الشوائب التي تَعْلَق فيه[1]، وسنشرح آلية عمل هذه الجزئيات في تنقية المياه فيما بعد.

ويؤكد **ابن خَلْصون** فكرة ابن سينا شارحًا صعوبة الحصول على ماء المطر الصافي النقيِّ، معتمدًا على ما ورد في القرآن الكريم الذي يصف ماء المطر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ (الفرقان ٤٨).

والماء الطاهر المطهِّر هو الماء القَراح الصَّافي، فيقول: «أَحْمَدُ المياهِ وأطيبُها **ماء المطر** المتخلِّص مِنَ التراب والتغير، الذي لم ينزل على سقف ولا سطح بل من السماء إلى الإناء، فهذا الذي بهذه الصفة أرقُّ المياه وأعذبها وألطفها لصعوده وحركته في نزوله وإشراف الشمس والكواكب عليه، إلا أن هذا الماء لا يمكن لأحد أن يدوم عليه لأن المطر لا ينزل في كل زمان، فإنِ احتبس في الأواني تغيَّر وفسد وزالت منفعته»[2].

ويعدد أنواع المياه المحمودة (التي يمكن شربها) في الطبيعة، فيقول: «وأَحْمَدُ المياهِ بعد ماء المطر **ماء الأنهار الكبار** بشروط:

* منها أن يكون بعيد المَفْجَر لكي ينطبخ، ويَرِقَّ بحركته وإشراف الشمس والكواكب عليه.

* ومنها أن يجري على الحصا الأبيض النقيِّ، ولا يجري على حمأة، ولا تراب متغيِّر، ولا سَبِخة مالحة، ولا أرض مجيَّرة، ولا كِبْريتية.

(١) ابن سينا أسهَم في تأسيس عِلم المياه الحديث، محمد زهير البابا، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العددان ٥/ ٦، السنة الثانية، حزيران (يونيو)، ١٩٨٢م.
(٢) كتاب الأغذية، ابن خلصون الأندلسي، محمد بن يوسف (القرن ٧هـ/ ١٣م)، تحقيق سوزان جيغاندي، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٦م، ص٥٠.

* ومنها أن يوضع في أوانٍ مزجَّجة لكي ينزل إلى قعرها ما خالطه من التراب والحجارة الصغار فإنه يكاد لا يسلم منها، فإذا تخلص وكملت فيه الشروط فهذا أفضل المياه.

ثم من بعده ماء العيون، بشروط: منها أن يكون جَرْيُه من جهة المشرق إلى جهة المغرب»[1].

ويوضح **ابن خلصون** أن مياه الأنهار مهما كانت رائقة فلا يجوز شربها قبل القيام بعملية ترسيب بسيط لها في الآنية الخزَفيَّة.

طرق تنقية المياه الملوثة:

أولاً- تنقية المياه في الحضارات القديمة:

مِنَ الصعب جدًّا التعرُّف على الطُّرق التي استخدمها الإنسان قديمًا في التنقية إلا من خلال ما تركه وراءه من رسوم وكتابات، وهي قليلة جدًّا، إلا أن استعراضها يفيد في تتبُّع تطور الوسائل المستخدمة في تنقية المياه عبر التاريخ.

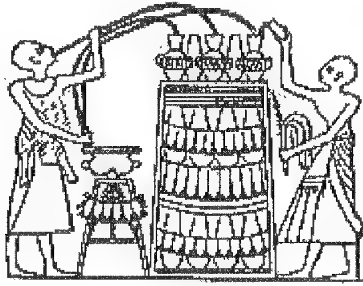
*** عند المصريين:**

تم اكتشاف نقش لأقدم جهاز لتنقية المياه على جدران مقبرة أمينوفيس الثاني في طيبة، والتي تعود إلى فترة (١٥٠٠-١٣٠٠) قبل الميلاد.

يعتمد الجهاز على مبدإِ الترسيب البسيط، حيث يقوم أحد العمال بصَبِّ المياه المراد تنقيتها في جِرار وتركها لفترة حتى تترسَّب الشوائب إلى قعر الجِرار، ثم يقوم عامل آخر بمصِّ المياه الرائقة باستعمال مُمِصٍّ رفيع،

(١) المصدر السابق ٥٠.

وسَحْبِها إلى أوعية محضَّرة لتخزينه واستعماله فيما بعد[1].



صورة توضيحية
تم العثور على هذا الجهاز المصري القديم موضحة صورته على جدار مقبرة أمينوفيس الثاني في طيبة. نحت النقش في سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد.

*** عند الهنود:**

عُرف الطب الهندي القديم (الإيروفيدا)، بأنه أقدم نظام للعلاج في العالم[2]، وأشهر مَن عمل في مجال الطب الهندي القديم: الطبيب «سوسروتا»، والطبيب «شاراكا»، وقد عاشا في الفترة الواقعة بين مائتي عام قبل الميلاد ومائتي عام بعد الميلاد.

ولقد جُمع عمل هذين الطَّبيبين في كتاب طبيٍّ سُمي «سوسروتا سامهيتا»، يصف الأمراض، وطريقة معالجة كل منها بواسطة العقاقير[3].

تذكر الكتابات السِّنْسِكريتية في «سوسروتا سامهيتا» ثلاث طرق

(1) BAKER, M. N, *The quest for pure water: The history of water purification from the earliest records to the twentieth century*, volume 1, second edition, American Water Works Association, P 2.

(٢) التداوي بالأعشاب والنباتات الطبية، أندرو شوفالييه، ترجمة عمر الأيوبي، أكاديميا إنترناشيونال، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م، ص ٣٤

(٣) تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، محمد زهير البابا، جامعة دمشق، مطبعة طربين، ١٩٧٤-١٩٧٥م، ص٢٢.

لتنقية المياه ما زالت مستعملة حتى وقتنا الحاضر، ولكن بعد تطويرها وتحديثها طبعًا:

أولًا: تنقيتها عن طريق غَلْيها على النار، أو يمكن غمس الحديد ساخنًا فيها بدلًا من ذلك.

ثانيًا: تسخينها في الشمس.

ثالثًا: يمكن تنقيتها عن طريق الترشيح من خلال الرمل والحصى الخشن، ثم تترك لتبرُد»[1].

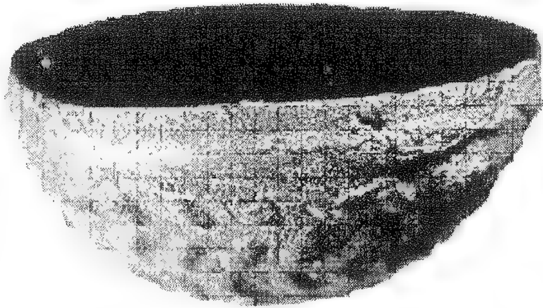
في عام ١٩٠٥، كتب فرانسيس إيفلين بليس - الذي درس الطب السِّنْسِكرِيتي الشعبي (التقليدي) - يقول: «إنه لَأمرٌ جيد حفْظُ المياه في أوعية مِنَ النُّحاس لتعريضها لأشعة الشمس، وتصفيتها خلال الفحم»[2].

*** عند اليونان:**

كان الهدف الأول عند اليونان هو التخلص مِنَ المظاهر السيئة للمياه كاللون والطعم والرائحة فانصبَّت جهودهم على هذه النقاط.

ويمكن اعتبار كأس إسبارطة[3] من أول الاختراعات التي حاول بها اليونانيون الحصول على مياه نقية، ولكنه كان اختراعًا غريبًا، فهو عبارة عن كأس ملونة الهدف منها عدم تمكُّن الشارب من رؤية لون المياه السيئ المتغير، وعدم رؤيته لجزيئات الطين المترسِّبة على جدرانه.

(1) BAKER, *The quest for pure water*, volume 1, P 2.
(2) BAKER, *The quest for pure water*, volume 1, P 1.
(3) BAKER, *The quest for pure water*, volume 1, P 4.



كأس أسبارطة

تغيرت هذه الطريقة على يد أبقراط الذي جعل همَّه العثور على أكثر مصدر صحِّي للمياه؛ لأنه كان مقتنعًا أن المياه المتوفِّرة في الأقنية اليونانية بعيدة عنِ النظافة والنقاء، لذا صمم جهازًا بسيطًا جدًّا لتنقية المياه مِنَ الشوائب سمي (أكمام أبقراط) حتى يضمن مياهًا نقية لمرضاه. كان الجهاز عبارة عن كيس من القماش يتم إمرار المياه المغلية عبره فيضمن بذلك تصفية المياه مِنَ الشوائب التي تعلق في القماش[1]، ولكن يبدو أن هذا الجهاز بقي محصورًا ضمن جدران عيادة أبقراط؛ لأنه لم ينتشر على نطاق العامة، وربَّما يعود ذلك لعدم وجود وعي كافٍ عند العامة بأهميَّة تنقية المياه قبل شربها.

وبقي غَلْي المياه من بعض أكثر أساليب معالجة المياه المبكِّرة والمقبولة، والتي استعملت لتأمين مياه نظيفة للجنود في ساحة المعركة.

ظهرت بعد ذلك بعض الطرق الهادفة للتخلص من طعم الماء الكَرِيه فنصح ديوفانيس (Diophanes) مِنَ القرن الأول قبل الميلاد، بوضع الغار المقطَّع في مياه الأمطار، أما باكساموس (Paxamus) مِنَ القرن الأول الميلادي،

(1) BAKER, *The quest for pure water*, volume 1, P 5.

فاقترح أن يوضع المرجان المكسَّر أو الشَّعير المقصَّف، في حقيبة، ويغمر في الماء ذي المذاق السيئ[1].

ولكن كما يذكر الأطباء العرب أن اليونانيين اعتمدوا بشكل أساسي على طريقة مزج الماء الملوث بالشراب الرَّيحاني العتيق (أي الكحول) لتنقيته، فيمدح رُوفُس الحكيمُ الشَّرابَ قائلًا: «وكيف لا يستحقُّ الشراب المدح أكثر من الماء، إذ كان يُذْهِب برداءة الماء وفساده وآفاته، وذلك أنا إذا أعوزنا الماء ولم نجد إلا ماءً رديئًا، لم نجد شيئًا نُصْلِح به رداءة الماء وفساده أقوى مِنَ الشراب فعلًا»[2].

ثانيًا- تنقية المياه في المؤلفات الطبية العربية:

كانت قواعد الشريعة الإسلامية التي تحثُّ على النظافة في كل شيء من مسكن وملبس وطعام وشراب، أحد الأسس التي انطلق منها علماؤنا وأطباؤنا العرب، مستفيدين من خبرات من سبقهم في هذا المجال.

غلب الطَّابع الوقائي على التدابير التي اتخذها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في حياته لحماية المياه مِنَ التلوث، وربَّما يعود ذلك لقلة الملوِّثات في تلك الفترة، فروي عن الرسول الكريم كثيرٌ مِنَ الأحاديث التي فيها دعوة صريحة لاتباع قواعد النظافة، فقال ﷺ: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود...»[3].

(1) BAKER, *The quest for pure water*, volume 1, P 5.

(٢) مادة البقاء ١٨٥.

(٣) الطب النبوي، ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد (٦٩١- ٧٥١هـ)، كتب المقدمة وراجع الأصل وصححه وأشرف على التعليقات عبد الغني عبد الخالق، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م، ص ٢١٦، والحديث في سنن الترمذي ٥/ ١١١ (ح ٢٧٩٩).

وحذر من تعرض الأواني المكشوفة للتلوث الهوائي، حيث ورد في «الصَّحيحين» أنه قال: «غَطُّوا الإناء، وأوكوا السِّقاء، فإن في السَّنة ليلةً ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل عليه من ذلك الوباء»[1].

لم تقتصرِ التدابير المتَّخذة على تغطية الأواني والسِّقاء، بلِ امتدت لتشمل منابع المياه، فعن معاذ بن جبل عنِ النبي ﷺ قال: «اتقوا الملاعن الثلاثة: البِراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[2]، وذكر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يَبولَنَّ أحدُكم في الماء الدائم، ثم يغتسل منه»[3].

كما وضع حدودًا للعيون والآبار يُمنع البناء أو الزراعة ضمنها، لحماية المياه الجوفية مِنَ التلوث بالمخلَّفات البشرية والنباتية، فحدد :

«حريم[4] العين خمسمائة ذراع، وحريم العَطن[5] أربعون ذراعًا، وحريم الناضح[6] ستون ذراعًا»[7]، وإذا حفر رجل ثان في حريم البئر الأولى بئرًا، أو بنى بناءً، أو زرع زرعًا، أو حدَّث شيئًا، فإن للأول أن يمنعه من ذلك، وإذا فسد مِنَ البئر الأولى شيء مما عمِله الرجل الثاني، كان ضامنًا»[8].

(١) صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، الجزء الثاني، كتاب الأشربة، رقم الحديث (٢٠١٤).

(٢) سنن أبي داود، أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي (٢٠٢- ٢٧٥هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة دمشق، ط١، ٢٠٠٩م، ١: ٢١.

(٣) المصدر السابق ١: ٥١.

(٤) الحريم: هو المحيط حول المصدر المائي الذي يُمنع لأي مستثمر آخر أن يحفر بئرًا فيه.

(٥) بئر العطن: هي بئر الماشية. يسقي منها الرجل الماشية، ولا يسقي منها الزرع.

(٦) البئر الناضح: هي كل بئر يُسقى منها الزرع بالإبل.

(٧) كتاب الخراج، يعقوب، أبو يوسف، تحقيق إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، ص ٢٣٧.

(٨) إنباط المياه الخفية، الكرجي، محمد بن الحسن (توفي بعد ٤٠٦هـ)، تحقيق بغداد عبد المنعم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٥٦.

وقد تنوَّعتِ الأساليب المتَّبعة في التنقية بحسب نوعية التلوث والمواد المنحلَّة فيها، فأخضعتِ المياه الملوثة لعدة مراحل لتؤمِّن كل مرحلة التخلُّص من نوعية معينة مِنَ الملوِّثات حتى يصل إلى درجة النَّقاوة المطلوبة، وهذه المراحل هي:

*** المرحلة الأولى: الترويق:**

وتعني بالمصطلح الحديث **الترسيب البسيط أو الطبيعي**، يتم في هذا النوع مِنَ الترسيب التخلُّص مِنَ المواد العالقة بالمياه؛ والتي وزنها النوعي أكبر مِنَ الوزن النَّوعيِّ للمياه، وذلك تحت تأثير الجاذبية الأرضية. ويُعدُّ مرحلة أولية في التنقية يتم فيها تخفيف الحمل مِنَ المواد العالقة في المياه قبل دخولها إلى المرحلة الثانية.

تترك المياه ساكنة لفترة مِنَ الزمن لتترسَّب جزئيات المواد الصُّلبة من تلقاء نفسها دون أي تغيير في شكلها أو حجمها بتأثير الجاذبية الأرضية[١].

عُرفت هذه الطريقة منذ أقدم العصور، فقد أظهرت النُّقوش المصرية على جدران المقبرة أن المصريين استعملوها لتنقية المياه حيث كانوا يصبُّون المياه في جِرارٍ، ويتركونها حتى تترسَّب المواد الصُّلبة إلى القعر، ثم يسحبون المياه الرائقة بالمُمِصِّ الرفيع، خوفًا من أن تضطرب المياه وتتعكر مرة أخرى.

ذكر هذه الطريقة **علي بن سهل بن ربن الطبري** في كتابه **«فردوس الحكمة»** في المقالة الرابعة عندما تحدث عنِ المطر وكيفية معرفة أصله هل هو مِنَ البحر أم مِنَ النهر، متبعًا أسلوب الأطباء الهنود، يقول: «فإذا وجدته

(١) مادة «المياه (معالجة)»، الموسوعة العربية، هند وهبة، ٢٠: ١٦٣.

مِنَ الماء المبارك النهري: لا ينبغي لمن قدَر عليه أن يشرب غيرَه، بل يأخذه في كرابيس جُدد أو في رَصاص أو زجاج أو خزف نظيف ثم يُتعهَّد بالترويق لئلا يتغير»[١].

ويقول **ابن سينا**: «إن اختلاف المياه قد يوقع المسافر في أمراض أكثر مِنَ اختلاف الأغذية، فيجب أن يُراعِيَ ذلك ويَتداركَ أمر الماء، ومِن تدارُكه كثرةُ ترويقه»[٢].

أما **ابن خلصون** فيوضِّح هذه الطريقة عندما يتحدث عن مياه الأنهار الكبار، وكيف نحصل على أفضلها: «ومنها أن يوضع في أوانٍ مزجَّجة لكي ينزل إلى قعرها ما خالطه مِنَ التراب والحجارة الصِّغار فإنه يكاد لا يَسْلَم منها، فإذا تخلص وكملت فيه الشروط فهذا أفضل المياه»[٣].

*** المرحلة الثانية: الترسيب بالترويب:**

أظهرت التَّجارِب الحديثة أن المياه تحتوي على مواد عالقة دقيقة يحتاج ترسيبها إلى زمن طويل، كما تحتوي على مواد غَروية مِنَ الصعب ترسيبها فيزيائيًّا، لذا كان لا بد من إضافة مركبات كيميائية تسمى المخثِّرات تعمل على تجميع هذه الجزيئات الدقيقة مع بعضها مشكِّلة ندفًا هلامية ذات حجوم كبيرة يسهل التخلص منها بالترسيب وبزمن قصير نسبيًّا.

كما يساعد الترسيب بالترويب على تخليص المياه من عدد كبير من البكتيريا التي تلتصق على سطح الندف الهلامية[٤]. وتتكون المواد الغروانية

(١) فردوس الحكمة، ابن ربن الطبري، علي بن سهل، (ت ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)، اعتنى بنسخه وتصحيحه محمد زبير الصديقي، طبع في مطبعة «آفتا»، برلين، ١٩٢٨م، ص٥٦٨.
(٢) القانون في الطب١: ١٨٦.
(٣) كتاب الأغذية ٥٠.
(٤) مادة «المياه (معالجة)»، الموسوعة العربية، هند وهبة، ص ١٦٣.

التي تتم إزالتها بهذه الطريقة من حموض أمينة، بروتينات، غضار غرواني، سيليكا غروانية، مواد سامة، ويترواح قطرها بين ١ ميلي ميكرون و ١ ميكرون[١].

وهناك مواد كيميائية كثيرة تستعمل في الترسيب بالترويب؛ من أهمها مركبات الألمنيوم والحديد، مثل كبريتات الألمنيوم (الاسم التِّجاري لها هو الشَّبُّ)، وكبريتات الحديد، وكلور الحديد وغيرها؛ وجميعها ليس لها أثرٌ ضارٌّ على الصحة.

ويساعد الخلط على زيادة نسبة تشكيل الندف، فكلما كان الخلط أفضل كان تشكيل الندف أفضل، فجودة الخلط تترافق مع تصادم أفضل للجزئيات، فتتشكل ندف كبيرة الحجم تسهل إزالتها بالترسيب.

وقد لوحظ نتيجة التجارب أنه يمكن إنتاج ندف ذات بنية قوية بإضافة مواد نسميها مساعِدات الترويب، وقد تم التعرف في الوقت الحاضر على عدد كبير من مساعِدات الترويب العضوية كالنشاء والصَّمْغيات النباتية[٢]، وهناك اتجاه حديث نحو استخدام بعض بذور النباتات في ترسيب العوالق الموجودة بالمياه عند معالجتها مثل بذور نبات المشمش، التي ثبتت كفاءتها في التخلص - بصورة كبيرة - من هذه الشوائب العالقة، وتعتمد فكرة عمل هذه البذور على أنها تحتوى على بعض المركَّبات الكيميائية التي تتَّحد مع الملوثات ليتم ترسيبها.

وبالعودة إلى أطبائنا العرب نجد أنهم كانوا من أوائل من تحدث عن

(١) معالجة مياه الشرب ١١٤.

(٢) المصدر السابق ١٥٨.

هذه التجربة وبدقة متناهية وبتفصيل واضح لتنقية الماء الكدر وهو (الماء الذي يكسب الكدر مما يجري عليه مِنَ البقاع والتُّرْب واختلافها)[١].

يُعدُّ **ابن ربن الطبري** أول من ذكر هذه الطريقة، ولكن بشكل مُبْهَم، يقول: «وأما أنا فإني قد سألتُ غير واحد من أهل مصر عن كدورة ماء النيل فذكروا أنهم يلقون فيه لُبَّ نَوَى الخوخ والمشمش مدقوقًا فيصفو»[٢]. وهو يتحدَّث هنا عن إضافة مساعِدات الترويب دون ذكر المواد المروِّبة (الشَّبِّ)، أو القيام بعملية الخلط.

ثم يتابع كلامه فيتحدث عن القصارين الذين كانوا يضيفون الشَّبَّ إلى الماء الكدِر، ولكن للحصول على ماء صالح للغسيل وليس للشرب: «ورأيت القصارين يُصفُّون الماء الكدِر بالشَّبِّ، يُلقون فيه - أعني في قدح - ويصبُّون عليه الماء، فإذا ذاب صبُّوه في الجُبِّ، وحرَّكوه ساعة فيصفو مكانه، ويصلح للغسل»[٣].

ويذكر **الرازي** عدة طرق لمعالجة الماء الكدِر، منها: «أو يُلْقَى فيه شيء مِنَ النِّشا، ومِنَ السَّوِيق (أي الدقيق)، فإنه يُصفِّي الماء، ويُروَّق عن النشا وعن الدقيق مرات»[٤].

ولكن لا تكتمل مراحل هذه التجربة وتتوضح إلا على يد **التميمي** فنراه يشرح طريقة الترسيب بالترويب بالتفصيل وبشكل دقيق ومشابهٍ للطريقة الحديثة المتَّبَعة في المخابر ومحطَّات معالجة المياه، يقول: «فأما تصفية

(١) الفلاحة النبطية، ابن وحشية، أحمد بن علي، تحقيق توفيق فهد، الجفان والجابي للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ١: ٨٨.

(٢) فردوس الحكمة ١١٠.

(٣) المصدر السابق ١١٠.

(٤) منافع الأغذية ١٥.

الماء الكدِر، فإنه قد يحتال لتصفية الماء الطيب الخفيف إذا كان كدِرًا في أوقات المدود، لأجل أنواع التُّرب التي يمر بها ويجري عليها، فمنه ما يُصفّى بأن يلقى فيه اليسيرُ مِنَ الشَّبِّ الأبيض اليَماني، فإنه إذا ألقي في الماء الحلو الكدِر، وحُرِّك به تحريكًا جيدًا، ثم تُرك ساعة زمانية، فإنه يصفِّيه، ويروِّقه، ويميِّز العنصر الأرضي منه بسرعة»[1].

ويقترح **التميمي** إلقاء مواد أخرى بدلًا مِنَ الشَّبِّ في الماء الكدِر مثل لُبِّ نوى المشمش أو اليسير من ملح الطعام مدقوقًا أو يلقى فيه شيء من خشب الساج، يذكر التميمي: «يلقَى في الماء الكدِر قلوب اللوز المرمد ويحرَّك تحريكًا جيدًا، ثم يترك ساعة زمانية فإنه يصفِّيه ويروِّقه»[2].

*** المرحلة الثالثة: الترشيح:**

إن مرور المياه التي تمت معالجتها بوساطة الترسيب البسيط والترويب عبر طبقة مِنَ الرمال، أو من أية مادة حبيبية أخرى، يؤدي إلى أن تفقد المياه القسم الأعظم مما تبقى فيها من ملوّثات، ويعود سبب هذه التنقية إلى أنه في أثناء عملية الترشيح يتم مزيج من ظواهر مختلفة أهمها التصفية والترسيب والامتزاز والتفاعلات الكيميائية والبيولوجية[3].

وقد طبقت هذه المرحلة بطريقتين:

- إما بتنقية المياه بعد المرحلتين السابقتين مباشرة، كما ذكر **الرازي** في أثناء حديثه عن طرق تنقية الماء الكدِر « يصفَّى قطرًا من خزف، أو تقطيرًا من إبريق»[4]، أي أن يتم ترشيحه من جِرارٍ خزفية.

(١) مادة البقاء ١٩٠.
(٢) المصدر السابق ١٩٠.
(٣) معالجة مياه الشرب ١٦١.
(٤) منافع الأغذية ١٥.

- أو أن يتمَّ غَليُ المياه التي تمَّ ترسيبها سابقًا، ولقد ذكرت هذه الطريقة منذ أقدم العصور، واعتمدتها الحضارات كافة، كما وجدنا سابقًا. وتعتمد طريقة التسخين إلى درجة الغليان في وقتنا الحاضر، ولمدة تتراوح بين خمس إلى عشر دقائق لتعطينا مياهًا معقَّمة تعقيمًا مأمونًا مِنَ الناحية الصحِّية[1]، فغلي المياه الملوثة لمدة معينة مِنَ الزمان يساعد على تحلُّل بعض ما فيها من مواد عالقة، ويتبخَّر ما انحلَّ فيها من غازات ضارَّة، ولكن بشرط أن يدوم الغليان لمدة معينة من الزمن لتكون كافية للتخلُّص مِنَ الجراثيم المُمرِضة.

وقد أظهر الأطباء العرب براعتهم في محاولة تفسير ما يصلح للمياه عند غليها، كما وضعوا شرط زمن استمرار غليان الماء الذي لم يذكره أحدٌ قبلهم، فيذكر **التميميُّ**: «ليس إصلاح الماء الفاسد ممكنًا بغير طبخه بالنار، إذِ النار بحَرِّها تُحلِّل ما فيه مِنَ الغِلَظ، وتُزيل عنه ما مازَجه من فساد الهواء المشابك له، وسبيله أن يُديم طبْخَه إلى أن يذهب عنه الرُّبْع»[2].

واشتراطُ **التميميِّ** استمرار الغليان حتى تتبخَّر رُبْع كمية المياه المغلية يعطي كمية كافية مِنَ الحريرات لقتل الجراثيم.

يتم بعد **ذلك** ترشيح المياه المغلية المعقمة في آنية خزفية جديدة الصنع ذات مسامات كبيرة، وبذلك يتم ترشيحه عبر مسامات الآنية.

«يُغْلَى غليانًا شديدًا، ثم يُبَرَّد تبريدًا قويًّا ويصفَّى عما يرسب»[3].

ولقد أيد معظم الأطباء الطريقة الثانية، **فالتميميُّ** يقول: «وينبغي أن

(١) معالجة مياه الشرب والمياه الصناعية ٢٦٥.
(٢) مادة البقاء ١٨٨.
(٣) منافع الأغذية ١٥.

نعلم أن أفضل هذا الماء المطبوخ ألطفُه وأنفعَه رشْحُه، وهو ما رشح منه في آنية الخزف الجديد المتخلّل الأجزاء الدائم الرشح، فليعمد شرب ذلك»[١]، ويؤيده في استعمال تلك الطريقة **الشيخ الرئيس ابن سينا**، يقول: «من تَدارُكِ أمر الماء كثرة ترويقه، وكثرة استرشاحه من الخزف الرشاح، وطبخه كما قد بينا العلَّة فيه قد يصفِّيه، ويفرق بين جوهر الماء الصِّرف وبين ما يخالطه»[٢]، ويشرح **ابن سينا** ما يحصل للماء عند غليه فيقول: «الطبخ يزيل التكثيف الحادث عن البرد أولًا، ثم يُخلْخَل أجزاء الماء خلخلة شديدة، حتى يصير أرقَّ قوامًا، فيمكن أن تنفصل عنه الأجزاء الثقيلة الأرضية المحبوسة في كثافته، وتخرقه راسبة، وتباينه بالرسوب. ويبقى ماء محضًا قريبًا من البسيط، ويكون الذي انفصل بالتبخير مجانسًا للباقي، غير بعيد منه؛ لأن المـاء إذا تخلص من الخلط (أي الشوائب الكلسية)، تشابهت أجزاؤه في اللَّطافة، فلم يكن لصاعدها كثيرُ فضلٍ على باقيها. فالطبخ إنما يلطف الماء بإزالة تكثيف البرد، وبترسيب الخلط المخالط له. والدليل على ذلك أنك إذا تركت المياه الغليظة مدة كثيرة لم يرسب منها شيء يعتد به، وإذا طبختها رسب في الوقت شيء كثير، وصار الماء الباقي خفيف الوزن صافيًا»[٣].

بقيت هذه الطريقة متَّبعة لمدة طويلة بعد أن أثبتت فعاليتها، فيذكرها **ابن القُفِّ الكركي** الذي عاش في القرن السابع الهجري «فإن كان الماء كدِرًا، فيخضخض أو يغلى أو يُروَّق أو يُستقطر»[٤].

(١) مادة البقاء ١٩٠.
(٢) القانون في الطب ١٨٦.
(٣) المصدر السابق ٩٨- ٩٩.
(٤) جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض، ابن القُفِّ الكركي، أمين الدولة، أبو الفرج بن موفق الدين يعقوب بن إسحق (٦٣٠- ٦٨٥هـ/ ١٢٣٣- ١٢٨٦م)، تحقيق سامي خلف الحمارنة، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩م، ص١٦٨.

*** المرحلة الرابعة: التقطير :**

تعتمد طريقة التقطير على غلي الماء في وعاء خاص ليتحول بوساطة الحرارة إلى بخار، ثم يكثف البخار ليتحول إلى سائل بوساطة الإنْبِيق[١]، ويتجمع السائل المتكاثف في دورق خاص، وتستخدم هذه الطريقة لتخليص السائل من المواد العالقة والمنحلَّة به.

وعملية التقطير للحصول على الماء النقي اختراع عربي خالص، فلقد كان العالم العربي الكيميائي **جابر بن حيان** كان أول من اخترع جهاز التقطير المسمَّى الإنْبِيق، والذي ما زال مستعملًا في مخابرنا حتى وقتنا الحـاضر، وما زالت هذه الطريقة تتبع في محطات تحلية المياه المالحة لإنتاج كميات محدودة من الماء المقطر.

يشرح **جابر بن حيان** عملية التقطير بأنه يتم غلي المياه حتى تتحول إلى بخار، ثم يمرَّر البخار إلى بَوْتَقة أخرى عبر أنبوب، وجعله يتكاثف فيها، وبذلك نحصل على ماء مقطر خال من الشوائب والعضويات الممرضة التي تساهم في نقل الأمراض عبر الماء[٢].

وذكر الطبيب **أبو بكر الرازي** - الذي اشتغل لمـدة طويلة في مجال الكيمياء - هذه الطريقة عندما تحدث عن طرق استخلاص الماء النقي مِنَ الماء الكدِر، لكنه غير في بعض مراحلها ربما لتبسيط الأمر على العامة الذين لا يملكون الأنبيق، فاستعمل أدوات بسيطة موجودة في البيوت كالآنية الفخَّارية بدلًا مِنَ الآنية الزُّجاجية، والصوف بدلًا مِنَ الأنبوب الرفيع،

(١) الإنْبِيق، بكسر الهمزة: جهاز تقطَّر به السوائل. المعجم الوسيط (أنبق).
(٢) تدبير الأكسير الأعظم، جابر ابن حيان، تحقيق وتقديم بيير لوري، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ص٢٥.

فيقول: «أو بالطبخ والصُّوف المنفوش على هذه الصفة، هي أن يجعل الماء في إناء فخار، ويوضع على رأسه قصب مشقَّق، وفوقه جزة صوف نقي مغسول، ويُوقِد تحته وقودًا رفيعًا، ويعصر الصُّوف متى ابتلَّ بالبخار»(١).

ويؤيده **ابن سينا** في أهمية هذه الطريقة فيقول: «وأبلَغُ من ذلك كلِّه تَقْطيرُه بالتصعيد»(٢).

*** المرحلة الخامسة: التصفية:**

تعتمد هذه الطريقة على الخاصة الشِّعرية، وهي الفعل الذي يجعل سطح السائل يرتفع (أو ينخفض) عند موضع تماسِّه مع الجسم الصلب، بسبب التجاذب النسبي بين جزيئات السائل فيما بينها، وبينها وبين جزيئات الجسم. ومن المعلوم أنه إذا غمسنا أنبوبًا رفيعًا في الماء، فإن الماء داخل الأنبوب يرتفع فوق مستوى الماء خارج الأنبوب(٣).

وربما تكون الخاصة الشِّعْرية قد عُرفت عند علماء الفِلاحة - بشكل غير واضح - عندما تحدثوا عن كيفية الاستدلال على وجود ماء وعدمه بعد حفر بئر في الأرض، فها هو **ابن وحشية** في كتابه «**الفِلاحة النَّبَطية**» يذكر آلة تدعى المرداث تستعمل لهذا الغرض، والمرداث هي عبارة عن نصف كرة مصنوعة مِنَ النُّحاس والخزف، أما عن كيفية استعمالها فيكون «بأن تؤخذ هذه الآلة، فيجعل في قعرها قطع شمع مذاب، ويلصق بذلك الشمع صوفة إلصاقًا جيدًا، وإن أحببت إحكامها فألصقِ الصُّوفة بشيء من زِفْت، ولْتكنِ الصُّوفةُ بيضاء منفوشة، وامسح حيطان الآلة من داخلها

(١) منافع الأغذية ١٥.
(٢) القانون في الطب ١٨٦.
(٣) مادة «الخاصة الشعرية»، الموسوعة العربية، موفق دعبول، ٨: ٧٢٧.

بالزيت الشامي الجيد، ثم اكب هذه الآلة على حروفها في جوف الحفيرة التي حفرت، ثم ألْقِ التراب على هذه الآلة وطُمَّها في الحفرة، ثم اتركها كذلك يومًا وليلة، ثم انْبِشِ التراب عن هذه الآلة آخر الليل قبل طلوع الشمس، وأخرجها وانظر على الصُّوفة، فإن وجدتها مبتلَّة قد عرِقت وترطبت وابتلَّت، إما بلًّا يسيرًا أو ترطيبًا كثيرًا، حتى يقطر منها الماء، ووجدت داخل الآلة أيضًا قد ترطب وتندى وابتلَّ، فاستدِلَّ بذلك على أن المكان وتلك الأرض ذات ماء غزير أو قليل، بحسب ما تجده من كثرة البلل وقلته، وإن خرجت هذه الآلة وليس في صوفتها ولا على حيطانها شيء مما ذكرنا، فاعلم أن ذلك المكان وتلك الأرض ليست ذات ماء البتة، إلا بعيدٍ لا يدرك»(١).

ونحن نذكر هذا الكلام لأن **ابن سينا** ابتكر طريقة لتصفية المياه بالاعتماد على الخاصَّة الشِّعرية التي ربما كان قد قرأ عنها في كتب الفِلاحة، ولكنه استثمرها بطريقة جديدة بعد أن فهم آليتها بشكل جيد، واستفاد من الأنابيب الشِّعرية الموجودة في ألياف الصوف ليحصل على مياه نقية من الكدِر.

يشرح ابن سينا طريقته فيقول: «وربما فتلت فَتيلة من صوف، وجُعل منها في الإناءين، وهو المملوء طرف، وترك طرفها الآخر في الإناء الخالي فقطر الماء إلى الخالي، وكان ضربًا جيدًا من الترويق»(٢)، وبذلك تتم تصفية المياه مِنَ المواد العالقة.

ذكرت المصادر العربية طرقًا أخرى لتنقية المياه تعتمد على تناول أنواع معينة مِنَ الأطعمة مع كل نوع من أنواع المياه، للحد من تأثير تلوثها

(١) الفِلاحة النبطية ١: ٦٤.
(٢) القانون في الطب ١٨٦.

كالسَّفَرْجَل والعسل والخل والبصل والثُّوم والدهن وماء الورد، وما إلى غير ذلك مِنَ المواد، ولكن تحتاج هذه الطرق لدراسة حديثة عملية للتأكد من صحتها.

الخاتمة:

يتبين لنا مما تقدَّم أن الأطباء العرب كانوا مدركين تمامًا أهمية البيئة التي يعيشون فيها وتأثيرها على الصحَّة، فدرسوا تلوث المياه - رغم انخفاض درجته بالنسبة للوقت الحاضر - وأسبابه، وأنواع المياه الملوثة في الطبيعة، ثم استفادوا من تجارب من سبقهم في تنقية المياه فطوَّروها، وابتكروا طرقًا جديدة ناجحة تُعدُّ الأساس المعتمد في تجاربنا الحديثة، وبذلك أثبتوا مساهمتهم في التطور العلمي.



أهم المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

- (كتاب) الأغذية، ابن خلصون الأندلسي، محمد بن يوسف (القرن ٧هـ/ ١٣م)، تحقيق سوزان جيغاندي، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٦م.
- إنباط المياه الخفية، الكرجي، محمد بن الحسن (توفي بعد ٤٠٦هـ)، تحقيق بغداد عبد المنعم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- (كتاب) الأهوية والمياه والبلدان، أبقراط، استخرجه إلى العربية شبلي شُمَيِّل، طبع في مطبعة المقتطف، القاهرة، سنة ١٨٨٥م.
- تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، محمد زهير البابا، جامعة دمشق، مطبعة طربين، ١٩٧٤-١٩٧٥م.
- التداوي بالأعشاب والنباتات الطبية، أندرو شوفالييه، ترجمة عمر الأيوبي، أكاديميا إنترناشيونال، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م.
- تدبير الأكسير الأعظم، جابر بن حيان، تحقيق وتقديم بيير لوري، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
- تقويم الصحة بالأسباب الستة، ابن بطلان، أبو الحسن المختار بن الحسن (ت ٤٣٥هـ)، تحقيق علي رشيد المحمود، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم تاريخ العلوم الطبية، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ٢٠١١م.
- جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض، ابن القف الكركي، أمين الدولة، أبو الفرج بن موفق الدين يعقوب بن إسحق (٦٣٠- ٦٨٥هـ/ ١٢٣٣- ١٢٨٦م)، تحقيق سامي خلف الحمارنة، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩م.
- (كتاب) الخراج، يعقوب، أبو يوسف، تحقيق د. إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
- سنن أبي داود، أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي (٢٠٢- ٢٧٥هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي، ج١، دار الرسالة دمشق، ط١، ٢٠٠٩ م.
- ابن سينا أسهَم في تأسيس عِلم المياه الحديث، محمد زهير البابا، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العددان ٦/ ٥ ، السنة الثانية، حزيران «يونيو»، ١٩٨٢م.
- صحيح مسلم، الإمام مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، الجزء الثاني.

- الطب النبوي، ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد (٦٩١- ٧٥١هـ)، كتب المقدمة وراجع الأصل وصححه وأشرف على التعليقات عبد الغني عبد الخالق، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م.
- فردوس الحكمة، ابن ربن الطبري، علي بن سهل، (ت ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)، اعتنى بنسخه وتصحيحه محمد زبير الصديقي، طبع في مطبعة « آفتاب»، برلين، ١٩٢٨م.
- الفِلاحة النبطية، ابن وحشية، أحمد بن علي، تحقيق توفيق فهد، الجفان والجابي للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ج١، ١٩٩٣م.
- القانون في الطب، ابن سينا، الشيخ الرئيس، الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي، (٣٧٠ - ٤٢٨هـ/ ٩٨٠- ١٠٣٧م)، الجزء الأول، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة.
- مادة البقاء، التميمي، محمد بن أحمد (كان حيًّا عام ٣٩٠هـ)، تحقيق يحيى شعار، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٩م.
- مصالح الأبدان والأنفس، أبو زيد البلخي، أحمد بن سهل، (٢٣٦- ٣٢٢هـ/ ٨٥٠- ٩٣٤م)، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، يصدرها فؤاد سزكين، سلسلة عيون التراث، المجلد ٢، طبع بالتصوير عن مخطوطة آيا صوفيا ٣٧٤١، فرانكفورت، ألمانيا، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.
- مضار وفوائد المياه المقطرة للإنسان والنبات، عبد الفتاح الحسيني، مركز فقيه للأبحاث والتطوير، ١٩٩٧م.
- معالجة مياه الشرب، سلوى حجار، منشورات جامعة حلب، كلية الهندسة المدنية، ٢٠٠٦م.
- معالجة مياه الشرب والمياه الصناعية، سلوى حجار، منشورات جامعة حلب، كلية الهندسة المدنية، ١٩٨٥م.
- منافع الأغذية ودفع مضارها، الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا (٢٥١- ٣٢٠هـ/ ٨٦٥- ٩٢٥م)، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية المنشأة بحوش عطا، بجمالية مصر، ١٣٠٥هـ.
- الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، محمد كامل حسين، طبع على نفقة الجمهورية العربية الليبية، ج٢.
- الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، دمشق:
  - مادة «المياه (معالجة)»، هند وهبة، ، المجلد العشرون.
  - مادة «الغرويات»، غدير زيزفون، المجلد الثالث عشر.
  - مادة «الخاصة الشعرية»، موفق دعبول، المجلد الثامن.

المراجع الأجنبية:

- BUQRAT. *KITAB BUQRAT FI L- AMRAD AL- RILADIYYA, (Airs, Waters and Places),* Edited and translated by J.N.MATTOCK, Arabic Technical and Scientific Texts, 1969, Published for the Cambridge Middle East Centre, Cambridge.
- History of Water Filters, www.spasandstuff.com.

بالعودة إلى المرجع:

- BAKER, M.N. and TARAS, Michael J, *The quest for pure water: The history of the twentieth century,* volume 1, by permission. Copyright 1981, American Water Works Association, Denver.
- JESPERSON, Kathy, *Search for Clean Water Continues*, West Virginia University, Morgantown, www.nesc.wvu.ed.



مخطوطة مفقودة لمجهول تنبئ عنها المقتطفات المنشورة من «زجر النَّابح» للمعرِّي[*]

نقد: د. السَّعيد السيد عُبادة[**]

في الجزء الثاني من المجلد الثالث والخمسين، من مجلة معهد المخطوطات العربية (ص ٧-٤٠) - بحث تحت هذا العنوان، للدكتور عبد الإله نبهان.

قرأت البحث فأثارني، بارتياد صاحبه لما لم يَرْتَدْه أحدٌ من قبل، وهو الكشف عن مخطوطة الطَّاعن الأوَّل[1] على أبي العلاء المعرِّيِّ في «اللُّزوميَّات»، تلك المخطوطة التي ردَّ أبو العلاء على ما فيها من الطُّعون بـ«زجر النَّابح»، والتي فقدت حتى الآن، فلم يَبْقَ منها إلا ما تضمنه الزَّجر قبل الردِّ - من ذكر المعرِّيِّ للطَّعن عليه بالكفر ونحوه - مع البيت الذي اقتضى ذلك، كما لم يَبْقَ عنها إلا ما تضمَّنه التَّعريف بـ«زجر النَّابح»، من «أنَّ أحد الجُهَّال تكلَّم على أبياتٍ من «لزوم ما لا يلزم»، يريد التَّشرير والأذيَّة، فألزم أبا العلاء أصدقاؤه أن ينشئ هذا، فأنشأ هذا الكتاب وهو كارهٌ»[2].

(*) نجز هذا النقد في (١٥/ ٣/ ١٤٣١هـ - ١/ ٣/ ٢٠١٠م).

(**) أستاذ جامعي وباحث مصري.

(١) الطعون التي وُجِّهت إلى المعرِّيِّ بسبب اللُّزوميَّات أربعة:

الطعن الأول : من مجهول - هو ما ردَّ عليه المعرِّيُّ بـ(زجر النَّابح) = أربعون كرَّاسة.

الطعن الثاني : من مجهول - هو ما ردَّ عليه المعرِّيُّ بـ(نجر الزَّجر) = ثلاثون كرَّاسة.

الطعن الثالث : من ابن المحبِّرة الحلبيِّ وآخر - هو ما ردَّ عليه المعرِّيُّ بـ(رسالة الضبعين).

الطعن الرابع : من داعي الدُّعاة الفاطمي في ثلاث رسائل - هو ما ردَّ عليه المعرِّيُّ برسالتين.

(تعريف القدماء بأبي العلاء ٤٢، ١٠٥، ١١٨، ١٣٩، ٥٢٦، ٥٣٧).

(٢) المرجع السابق ١٠٥.

لكن كيف أنبأتِ المقتطفاتُ الباحثَ عن المخطوطة المفقودة؟

في مقدمة من عدَّة صفحات (٧-١٢)، ذهب الباحث إلى أن المعرِّيَّ فيلسوف، كما قال غير واحد ممن ذكرهم، لا مفكِّر حرٌّ كما قال د. شوقي ضيف. يريد بما ذهب إليه أن الفيلسوف مضادٌّ للشرائع ولِمَا أتتْ به من بعثٍ وحساب...

ثم ذكر - وهو صحيح (ص١٣-١٤) - أنَّ المقتطفات الباقية من «زجر النَّابح» بلغت (٨٩) تسعة وثمانين نصًّا. غير أنه للكشف عن مخطوطة الطَّاعن لم ينظر إلا في تسعةٍ منها، هي بالترتيب في بحثه:

النَّصُّ رقم (٣٤) في (ص١٤) من البحث.

ثم النَّصُّ رقم (١٠) في (ص١٦) من البحث.

ثم النَّصُّ رقم (٧١، ٧٢) في (ص١٨) من البحث.

ثم النَّصُّ رقم (٧٣، ٧٤) في (ص٢٣) من البحث.

ثم النَّصُّ رقم (٦٦) في (ص٢٥) من البحث.

ثم النَّصُّ رقم (٣٢) في (ص٢٧) من البحث.

ثم النَّصُّ رقم (٢٣) في (ص٢٩) من البحث.

أما كيف نظر في هذه النُّصوص، فإنه كان في كلِّ موضع يأتي بالبيت - أو الأبيات - فالطَّعن فالردُّ كما في المقتطفات، ثم يحاول تقدير كلام الطَّاعن على خلاف ما قال أبو العلاء، أي إنه كان مع الطَّاعن في ما يؤيد الاتِّهام، وضدَّ المعرِّيِّ في ما ينفيه، ولنأخذ مثالاً على ذلك النَّصَّ الأوَّل متلوًّا بقوله عنه (ص١٤-١٦):

فـإنَّ رجـالاً كـان نَسْرٌ لَـدَيهـم
إلهـًا، عليهـم قبلَنَـا طَـلَعَ النَّسْرُ

وعاشـوا يَرَوْنَ الْيُسْر إفضـالَ مُكثِرٍ
على مُقْتِرٍ، ثم انقَضَى النَّـاسُ والْيُسْرُ

قال أبو العلاء في الرَّدِّ على مَنِ اعترض عليه في البيت الأول:

« إنَّ ادِّعاء المنكِرِ هذا البيتَ أنه دليل الإلحاد - لمن المنكَرات، كما يُدَّعى للشُّامة أنها تشبه النَّخلة، وللذَّرَّة أنها من آل الدُّرَّة، وإنَّ هذا البيت لعارٍ مما زعَمَ، كما عَرِيَ النَّصْل من اللِّباس، والغصن في الشَّتْوَة من الأوراق، وإنما الغرض أنَّ العـالَمَ يَهْلِك جيلاً بعـد جيل، ويزول قَرنًا في إثر قَرنٍ، كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨]، والمراد أنَّ نَسْرًا الذي ذكره الله سبحانه في القرآن عند قوله: ﴿ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]، وهو في ما يُرْوَى قبل نوح بزمان طويل - كان يسجد له قوم، ويطلع عليهم النَّسْر من النُّجوم، فهلكوا كما هَلَكَ غيرهم من الأنام. وقد اختُلف في نسرٍ هذا، فقيل: إنه واللَّذَيْن ذُكرا معه - وهما يَغوث ويَعوق - كانوا رجالاً يُعظَّمون ويُكرَّمون، فلما هلكوا اتَّخذت أتباعُهم صورًا من الحجارة تشاكلهم، وكانوا يسجدون لها، وقد رُوي أنَّ يَعوق ويَغوث صنمان، وأنَّ نَسْرًا إنما عُني به نَسْرٌ - أي طائر - كان يجيء إلى قوم، فيُجلُّونه ويُهدون إليه عذراء من عذارَى الحيِّ فيأكلها، ويزعمون أنه يخبرهم بما يكون، في كذبٍ كثير لا تحسن الإطالة بذكره، ولا ريب أنَّه كان من الطَّواغيت[1] ».

(١) الطواغيت: جمع طاغوت وهو كل معبود من دون الله ﷻ (اللسان: طغى).

* ولا ريب – يقول الباحث – أنَّ ذلك (النَّابح)، الذي كان يريد التَّشرُّر والأذيَّة للمعرِّيِّ، قد فسَّر هذا البيت على خلاف ما فسَّره المعرِّي، وربما كان قد قال:

إنَّ المعرِّي يقصد أنَّ (النَّسر) قديم، وقد مرَّت أممٌ أَلَّهته وعَبَدَته وقدَّمت له القرابين، ثم آلت هذه الأجيال إلى العَدَم الذي لا رجعة منه، وبقي النَّسر يَطْلُع كما كان يَطلُع.

وهذا التفسير المفترَض الذي قدَّمه (النَّابح) يَتَّفق مع ما ذهب إليه المعرِّيُّ في كثير من شعره، وخاصة بيتيه المشهورين:

ضَحِكْنا، وكان الضِّحكُ منَّا سَفاهةً
وحُقَّ لسُكَّان الْبَسيطة أَنْ يَبكُوا
تُحطِّمُنا الأيَّامُ حتَّى كأنَّنا
زُجاجٌ، ولكنْ لا يُعادُ لنا سَبْكُ(١)

فكأنَّ ذلك العدوَّ يبيِّن ما يُحِبُّ المعرِّي إضماره، لذلك أخذ المعرِّي يُؤوِّل ويستطرد، ليخرج من المعنى المراد إلى معنى آخر، يتَّفق وعقيدة الناس.

على هذا النحو، من التقدير لكلام الطَّاعن، على خلاف ما ردَّ به أبو العلاء، ومع الاستشهاد للتقدير أحيانًا كما هنا – مضى الباحث في سائر النصوص.

وأيًّا ما كان موقفه من المعرِّيِّ، ففي ما نحن بصدده من بحثه نظرات:

أولاها: أنه كان موفَّقًا غاية التوفيق في الاختيار وفي العنوان، أما الاختيار فلأنه – كما أسلفت – قد ارتاد ما لم يَرْتَدْه أحدٌ قبله طوال ألف عام، وأما العنوان فلأنه لا شك في صحته وفي دقَّته، على الرغم من طوله

(١) لزوم ما لا يلزم ٢: ٢١٦ طبعة بيروت كما في البحث.

الذي جعل بعض القرَّاء يقترح عنوانًا أقصر، لم أوافقه عليه؛ لأن عنوان الباحث أدقُّ.

والثانية: أنَّ ذَهابه من أوَّل البحث إلى اتهام المعرِّيِّ، بحجَّة أنَّ كثيرين أجمعوا على ذلك (ص١٠-١١) – ينافي العنوان، وينافي التحقيق، أما منافاته العنوانَ فلأننا فيه لسنا بصدد الاتِّهام، بل بصدد الكشف عن مخطوطة مفقودة، من حيث محتواها، بلا انحياز إلى صاحبها أو عليه، وبلا انحياز أيضًا إلى المطعون بها أو عليه. وأما منافاته للتحقيق؛ فلأننا في ما عدا الوَحْي المنزَّل، لا نثق حتى نتبيَّن، ولا يثنينا عن التبيُّن إجماعُ كثيرين، ممن يبحثون عنِ الزَّلَّات دون الحسنات؛ إذ لا شكَّ أنهم، ولا سيَّما الطاعنون، قد وجدوا في «اللُّزوميَّات» أضعافًا مضاعفةً لما يُضادُّ الاتِّهام، من مثل قول أبي العلاء:

بِعِلْمِ إلَهِي، يُوجَدُ الضَّعْفُ شِيمَتِي
فَلَسْتُ مُطِيقًا لِلْغُدُوِّ وَلَا الْمَسْرَى
غَبَرْتُ أَسِيرًا في يَدَيْهِ، ومَنْ يَكُنْ
له كَرَمٌ تُكْرَمْ بِسَاحَتِهِ الأَسْرَى
أَأُصْبِحُ في الدُّنيا كَما هُوَ عالِمٌ
وأَدْخُلَ نارًا مِثْلَ قَيْصَرَ أو كِسْرَى
وإِنِّي لَأَرْجُو منهُ يَوْمَ تَجاوزٍ
فَيأمرَ بِي ذَاتَ الْيَمِينِ إلى الْيُسْرَى(١)

(١) لزوم ما لا يلزم ١: ٦٨ طبعة الخانجي بمصر.

ثم قوله:

قَالَ المُنَجِّـــمُ والطَّبِيبُ كِلَاهُمَـــا ... لَا تُحْشَـــرُ الأَجْسَـــادُ، قلتُ: إِلَيْكُمَا
إنْ صَـــحَّ قَوْلُكُما فَلَستُ بخَـــاسِرٍ ... أو صَـــحَّ قَوْلِي فالخَسَـــارُ عَلَيْكُمَا
طَهَّـرْتُ ثَوْبِي للصَّـــلاة، وقبـلَهُ ... طُهْـرٌ، فأين الطُّهْـــرُ مِنْ جَسَدَيْكُمَا
وذكرتُ ربِّي في الضَّـمائِرِ مُؤْنِسًـا ... خَـــلَدِي بذاكَ، فَأَوْحِشَـــا خَلَدَيْكُمَا
وبَكَـرْتُ في البُرْدَيْنِ أَبْغِـي رَحْمَـــةً ... منـــهُ، ولا تَرْعـــانِ في بُرْدَيْكُمَا
بُرْدُ التَّقِيِّ وإنْ تَهَلْهَـــلَ نَسْجُـــهُ ... خَـــيْرٌ بِعِـــلْم الله من بُرْدَيْكُمَا[1]

وإذا كان الطَّاعن في «اللُّزوميَّات»، إنما تكلَّم على أبياتٍ منها - هي نحو مائتين من أحد عشر ألف بيت - فما أعظم الذي سلم من كلامه؛ لأنه (٩٨٪) تقريبًا[2]، وما أجدرَنا عند هذه السلامة أن نتقيَ اللهَ، فنتلو - بدل

(١) لزوم ما لا يلزم ٢: ٣٠٠ طبعة الخانجي بمصر.
(٢) إنما قلت: «هي نحو مائتين» إلى هنا، تبعًا لما وجدتُ، من أن في «اللُّزوميَّات»: (١٥٩٤) لزوميَّة، و(١١٠٠٠) بيت، وأنَّ في «المقتطفات»: (٨٩) بيتًا معترَضًا عليه، وأنَّ آخر المعترَض عليه من اللُّزوميَّة رقم (٧٠٠)، فإذا كان (٧٠٠) لزوميَّة قد اعترض على (٨٩) بيتًا منها، فالمعترَض عليه من جملة «اللُّزوميَّات» (١٥٩٤) هم نحو (٢٠٠) بيت، وإذا كان مائتا بيت هي ما اعترِض عليه من أحد عشر ألف بيت، فنسبة المعترَض عليه هي حوالي (٠٢٪)، ونسبة السالم من الاعتراض هي - كما قلت - حوالي (٩٨٪). (انظر: تعريف القدماء بأبي العلاء، ص١٠٥، وزجر النَّابح - مقتطفات - ص١٦٩، وشرح اللُّزوميَّات - لمجهول - ٤: ١٩٤).

الاتِّهام - قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]، ثم ما أجدرنا إن صحَّ كلام الطَّاعن أو صحَّ بعضه، أن نحسن الظنَّ بالله، فنتلو - بدل الاتِّهام أيضًا - قوله الكريم عمن خَلَطوا فتابوا: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٢].

والثالثة: أنَّ اقتصار الباحث في النظر على بعض المقتطفات ينافي إسناده الإنباء إلى جميعها في العنوان، ولا يقولنَّ: إنَّ هذه التي اختصَّها بالنظر هي التي ذكر المعرِّيُّ فيها قول خَصْمه (ص١٤)، كما لا يقولنَّ: إنَّ البعض هنا يغني عنِ الكُلِّ، ولا إنَّ الطعون متشابهة، والرُّدود متشابهة، والرَّد عليها كذلك (ص٣١)، لا يقولنَّ شيئًا من ذلك؛ لأنَّ النصوص الباقية لا تتشابه إلا في النَّادر، ومن ثم لا يغني فيها بعضٌ من كلٍّ، ولا ما ورد فيه الطعن عما لم يَرِد فيه. وإذا كان في بحثه يريد الاستدلال على مخطوطة مفقودة، أو يريد كما في العنوان إنباء الزَّجر - أو ما بقي منه - بها، فإنما الإنباء بالجميع؛ لأنَّ في كلِّ بيتٍ وفي كلِّ طعنٍ وفي كلِّ ردٍّ مِنَ المعاني ومِنَ الدلائل - ما يستوجب الاستقراء والاستقصاء، خذ مثلاً - مما تَرَكَ - النَّصَّ رقم (٢٤):

«لا أَخْطُبُ الدُّنيا إلى مالكِ الدْ ... ـدُنيا، ولكنْ خِطبتي أُخْتَهَا

قال أبو العلاء تعليقًا على هذا البيت:

لَفَظَ بأنه لا يخطب الدُّنيا الفانية إلى ربِّها، وإنما يخطب أختها المنتظرة. فكيف تُدَّعَى الدَّعـوةُ الباطلة على مَن هـذا اعتقادُه، وطَلَبُ الآخـرة همُّه والتماسُه؟! فرحم الله القائل:

إذا مَحاسِنيَ اللَّاتي أُدِلُّ بهـــا ... كانتْ ذنوبي، فَقُل لي كيف أعتذرُ[1].

(١) زجر النَّابح ٣٩. والبيت الأخير - وهو الشاهد - للبحتريِّ (ديوانه ٢: ٩٥٤).

أتراه ترك هذا النَّص لشيءٍ مما ذَكَرَ؟ كلَّا! إنما تركه لأنَّ الاتِّهامَ فيه باطل، والرَّدَّ فيه مُقنع، والبيتَ - المعيبَ - من المحاسن، وليس يعيبه إلا كاذب.

ثم خذ مثلاً آخر - مما تَرَكَ أيضًا - النَّصَّ رقم (٦٠):

سَعَى آدمُ جـدُّ البريَّة في أذًى ... لذرِّيَّةٍ في ظهـره تُشبه الذَّرَّا

تَلَا النَّاسُ في النَّكراءِ نهج أبيهِمُ ... وغـرَّ بَنُـوهُ في الحيـاةِ كما غُرَّا

قال أبو العلاء في الرَّدِّ على مَنِ اعترض عليه في هذين البيتين:

هذا مأخوذ من الكتاب الكريم؛ لأنه قد نطق بعصيان آدم عليه السلام، وهبوطه إلى الأرض بما فعل من الجريرة. وفي الكتاب الكريم: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]...

ومنْ جَهْل هذا المعترِض، أنه وَصَلَ بهذين البيتيْن بيتًا لا يدخل معهما، وظنَّ أنه يجوز أن يُوصَل إليهما، فأنبأ ذلك عن غريزة ناقصة، ولُبٍّ ليس بثابتٍ، وتعرُّضٍ لما لا يُحسن. ولقد ذكر أحمد بن عبد الله بن سليمان(١)، أنه أُرِيَ فيما يرى النائم أبياتًا من الشِّعر ويتكلم على معانيها، وأنَّ رائي المنام عَجِب من ذلك كلَّ العَجَب، وكان مما سمعه يُنشَد:

الشِّـعرُ بـابٌ وبَعيـدٌ سُـلَّمُهْ
والشِّـعرُ لا يَسْطِيعُـهُ مَنْ يَظلِمُهْ
إذا ارْتَقَى فيـه الذي لا يَعْلَمُهْ
يريـدُ أنْ يُعـربَهُ فيُعجمُـهُ(٢)

(١) هو أبو العلاء نفسه.

(٢) الرجز لرؤبة (ديوانه - الملحقات - ١٨٦)، وينسب إلى الحطيئة في (العمدة ١: ١١٦)، وانظر: معجم شواهد العربية، ص٥٣٦.

وإنما هذه الأبياتُ مَثَلٌ للمتكلِّم؛ لأنه وَصَل بالبيتين المتقدِّميْن بيتًا هو:

أَرَى عَالمًا يشـكُو إلى الله جهـلَهُ
وكَمْ مِنْ بَرَى يَعْلُو - فيخطُبَ - مِنْبرًا(١)».

انظر إلى قوله: «ومِنْ جَهْل هذا المعترِض» إلى آخر النَّصِّ، لترى أنَّ مخطوطة الطَّاعن المفقودة، لم تكن لما صَحَّ عند الباحث فحسب، بل كانت أيضًا لما لا يصحُّ عنده ولا عند غيره، مما تركه، ومما مثَّلنا لبعضه، كالكذب في المثال السابق، وكالتلفيق في المثال الثاني، ذلك التلفيق الذي جمع فيه الطَّاعن بين بيتين من لزوميَّة، وثالث من لزوميَّة تالية، والبيتان: هما السابع والثامن في الأولى. والثالث: هو الثاني في التَّالية(٢). وغنيٌّ عنِ القولِ ما بين اللُّزوميتين مِن اختلافٍ، حيث جاء الرَّويُّ مشدَّدًا في الأولى، وغير مشدَّدٍ في التالية، ولأنَّ الاختلاف بَيِّنٌ كان التلفيق بيِّنًا كذلك، وكنَّا معه بصدد الدِّفاع عنِ الدِّين من غير ملتزم بالدِّين، وبصدد مخطوطةٍ هي - كما قال أبو العلاء - نتاج «غريزة ناقصة، ولُبٍّ ليس بثابت، ومتعرِّضٍ لما لا يحسن».

وإذا كنا من نصيْن فقط مما ترك الباحث، قد وقفنا على بعض ما في المخطوطة من كذب وتلفيق، فماذا في سائر ما ترك؟ وما مقدار دلالته على المخطوطة بالاقتصار على تسعة مقتطفات من تسعة وثمانين؟ ثم هل لي أن أدعوَه إلى قراءة المثال الأوَّل مما ذكرتُ مرة أخرى؛ لأنه لو كان قرأه وقرأ أمثاله مع بعض الاهتمام، ما قال في آخر بحثه (ص٣٢):

«ولكن هل كان - [أبو العلاء] - مقنِعًا في ردِّه على خصمه؟ الجواب - في ما أرى - أنه لم يكن مقنِعًا ، وكان يَلْوِي عُنق النَّصِّ - نصِّه - ويحتال

(١) زجر النَّابح ٩٩-١٠٢.

(٢) لزوم ما لا يلزم ١: ٣٥١، ٣٥٣ ، طبعة الخانجي.

في تفسيره وتوجيهه ، ويستطرد هاربًا إلى التاريخ تارةً ، وإلى اللُّغة تارة أخرى ، وإلى المجاز ؛ لكي يصوِّر لقارئه أنه لم يُرِدْ ما نسبه إليه ذلك الذي سماه (النَّابح) ، ورماه بشتائم لم تكن لتصدر عن مثله...».

أما الجواب – في ما يرى كاتب هذه السطور – فهو:

أنَّ أبا العلاء كان مقنِعًا غاية الإقناع في كثير من ردِّه الذي تركه الباحث؛ والذي أودُّ أن يقرأه مرَّة أخرى، حيث لا شيء مما ذكر؛ من لَوْيٍ أو احتيالٍ أو استطراد... وعندي أنَّ هذا الإقناع هو الذي نَجَّى المعرِّيَّ من كيد (النَّابح)، وهو الذي ذهب بصحيفة الاتِّهام – أي مخطوطته – كلَّ الذَّهاب، وأبقى على صحيفة الدِّفاع – أي (زجر النَّابح) – ممثَّلاً في هذه (المقتطفات).

والرابعة: أنَّ الباحث – وهو محقِّق – قد نَافَى التحقيق مرَّة أخرى، في تقديره للاتِّهام، وفي استشهاده عليه، أما التقدير للاتِّهام: فهو ما حاوله في النُّصوص التسعة التي أوردها، ولا بأس بالمحاولة إن كانت بلا انحياز وبلا إيجاب، لكن الانحياز واضح – من قَبْل التقدير – باختيار ما يسمح به، ثم هو أوضح في التقدير؛ لأنَّ الباحث لم يقدِّر إلا ما يوافق الطَّاعن ويضادُّ المعرِّيَّ، كأنه لم يجد في النُّصوص التي أوردها ما يسمح ولو مرَّة بالمخالفة للاتِّهام، وهذا غريب؛ لأننا إذا تأمَّلنا دفاع المعرِّي في النُّصوص التسعة سوف نجد ما يسمح بموافقته ومخالفة الطَّاعن، واقرأ إن شئت – فيما سبق (ص١٣٩) – دفاعه عن قوله: * فإنَّ رجالاً... * ، ثم اقرأ تقدير الباحث لاتِّهام الطَّاعن ولتفسيره – لترى أنَّك مع الدِّفاع وضدَّ الاتِّهام، مع الدِّفاع؛ لأنَّ غَرَضَ المعرِّيِّ – كما شَرَحَ وبَيَّنَ – لم يبعد عنِ القرآن. وضدَّ الاتِّهام؛ لأنَّ تقديره أَخْطأ في جعله (النَّسر) المعبود عند المعرِّيِّ هو نَسر النُّجوم على

الرَّغم من اختلافهما. وأَبْعَدَ في جعله المعرِّيَّ يقصد أنَّ (النَّسر) قديم – أيْ أزليٌّ – وأنَّ انقضاء النَّاس إلى عدمٍ لا رَجْعَةَ منه، وهو ما لا يبدو من قوله.

وإذا كنتُ لم أُوثِرِ الانحياز في التقدير، فإنني لم أوثِرِ الإيجاب فيه كذلك، على الرَّغم من أنَّه لم يكن في جميع المواضع كالانحياز، وإنما لم أوثِرِ الإيجاب في تقدير الاتِّهام؛ لأنَّه إذا كان نصُّ الاتِّهام مفقودًا فالتقدير له تخمينٌ، مجرَّد تخمينٍ، ولأنه تخمين كان المناسب له ما فعل الباحث في النَّصِّ الأول، حيث يقول في تقدير كلام النَّابح (ص١٥): «وربما كان قد قال...»، ومثله قوله في النَّصِّ الثاني (ص١٧): «ويمكن أنْ نتصوَّر أنَّ الطَّعن في أبي العلاء قد جرى على هذا النحو...».

أما قوله بعد ذلك (ص٢٠): «ولا شكَّ أنه – يعني النَّابح – اتَّهم المعرِّيَّ بأنَّه اتَّبع القدماء من الفلاسفة». ثم قوله (ص٢١ أيضًا): «ولا شكَّ لديَّ في أنَّ مثل المعرِّيِّ عندما يستخدم لفظ «قديم»، إنما يعني به معناه الاصطلاحيَّ». ثم قوله (ص٢٢): «ولا شكَّ أن ناقد أبي العلاء قد كتب فيه هذا وبيَّن آراء المتكلِّمين». ثم قوله (ص٢٤): «لا شكَّ في أن النَّابح عندما فسَّر البيت الأوَّل قد ذهب إلى أن التَّعجب في البيت هو من الضَّرب الإنكاريِّ». ثم قوله (ص٢٦): «ولا شكَّ في أنَّ خَصْم أبي العلاء كان اتَّهمه من خلال بيتيه أنَّه منكر للبعث والنُّشور». ثم قوله (ص٣٠): «ولا شكَّ في أنَّ خَصْم أبي العلاء قد قدَّم شرح البيتيْن على هذا النَّحو : إنَّ المعرِّي غير مُوقِنٍ بالبعث والنُّشور ولا باليوم الآخر» – أمَّا هذه الأقوال فلا خلاف في منافاتها للتحقيق وللبحث العلميِّ، من حيث إنه لا قطع في أيٍّ من حقائق العلم والأدب، حتى نقول: «يجب» أو «لا شكَّ»، إنما قُصارانا أن نقول: «الظاهر كذا»، أو «يمكن»، أو «يبدو»، أو «يجوز»، ونحو ذلك.

وأما الاستشهاد على الاتهام: الذي أعنيه، فهو ما سبق في (ص١٤٢) من استدلال الباحث - على ما قدَّره من إنكار المعرِّيِّ للبعث - ببيتيه المشهورين: * ضَحِكْنا وكان الضِّحكُ منَّا سَفاهةً... * ، وإنما نَافَى التَّحقيق في هذا الاستدلال؛ لأنه اعتمد على طبعة واحدة من طبعات «اللُّزوميَّات»، هي طبعة بيروت غير المحقَّقة، والتي ورد فيها البيت الثاني هكذا:

تُحطِّمُنَا الأيَّـامُ حَـتَّى كأنَّنَـا زُجَاجٌ، ولكنْ لا يُعادُ لنا سَبْكُ

برواية «لنا» مكان «له»، الواردة في أكثر من طبعة، مصحَّحة ومحقَّقة[1].

وعليها لا إنكار للبعث كما ذهب الباحث؛ لأن الضمير في «له» عائدٌ إلى «الزُّجَاج» لا إلى غيره.

ولعله من البيِّن، أننا في الاستشهاد من كتاب ذي طبعات، بعضها محقَّق كـ«اللُّزوميَّات»، لا نستشهد من طبعة غير محقَّقة، ولا من محقَّقة حتى نراجع غيرها، إلا إذا كان محقِّقها قد صدر عن جميع النُّسَخ المخطوطة والمطبوعة، أو صدر عن أكثرها.

والخامسة: أنَّ الباحث - وله الفضل - قد أثارني لما لم أكن بصدده، وهو البحث عن طبيعة الطَّاعن وطبيعة طعنه، لا أعني البحث عن الاسم بل عنِ الصفة؛ لأن المسمَّى قد لَفَظَه عصره، في ما يبدو، فقَذَفَ به، وكما قَذَفَ بالمسمَّى قَذَفَ بالاسم، أما الصفة للطَّاعن: من حيث هو أديبٌ أو فقيهٌ، وللطَّعن: من حيث هو كتابٌ أو رسالةٌ - فممَّا يمكن البحث عنه والاجتهاد فيه.

(١) انظر: لزوم ما لا يلزم ٢: ١٤٧ تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، ونشر مكتبة الهلال ببيروت ومكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م. وشرح اللُّزوميَّات ٢: ٣٤٢ بتحقيق منير المدني، وإشراف ومراجعة د. حسين نصار، ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٢م.

والذي أرجِّحه أن الطَّاعن فقيهٌ لا أديبٌ؛ لأسباب:

منها: خلطه بين اللُّزوميتيْن خلطًا دلَّ على نقص حسِّه بالنظم وتذوُّقه له، كما دلَّ على بُعده عن ساحة الأدب والأدباء؛ لأنه من ساحةٍ أخرى.

ومنها: أنَّ الاتِّهام بالكفر ونحوه لا يكون من أديب في الغالب، إنما من فقيه مشغول بدراسة الدِّين، وبكلِّ ما يتصل به.

ومنها: أنَّ مَنْ عرفناه مِنَ الطَّاعنين على أبي العلاء في «اللُّزوميَّات»، كان من الفقهاء لا من غيرهم. أعني أحد الطَّاعنيْن، اللَّذيْن عناهما المعرِّيُّ في «رسالة الضَّبْعَيْن»، بالمضاف إليه في العنوان، فإنه من الفقهاء[1]، وأعني كذلك داعيَ الدُّعاة الفاطميَّ[2]، الذي كان كما أسلفت (ص١٣٧) آخر الطَّاعِنِين، ولأنَّ هذين اللَّذين عرفناهما مِنَ الفقهاء، يبدو أنَّ مَنْ لم نعرف - كالذي نحن بصدده - كان أيضًا مِنَ الفقهاء.

أما صفة الطَّعن - من حيث هو كتاب أو رسالة - : فمِنَ الحق أنَّ الباحث ذكر المخطوطة باسم «كتاب» غير مرَّة (ص١٣، ٣٠، ٣١)، وباسم «رسالة» مرَّة واحدة (ص٣٠)، دون أن يرجِّح أيَّهما. ولعلَّ هذا ما جعلني أحاول ما لم يحاولْ - من سؤالٍ فجوابٍ - :

(١) وهو الشريف ابن المحبّرة أبو عليٍّ محمد بن محمد بن هارون الهاشمي الحلبي، كان قد تصدَّى للسَّعي بأبي العلاء، والتَّأليب عليه، وكان من أكابر الحلبيِّين وفقهائهم، ثم سُعِيَ به وقتل سنة إحدى - أو اثنتين - وأربعين وأربعمائة (بغية الطلب في تاريخ حلب ٢: ٨٩٦، وتعريف القدماء بأبي العلاء ٥٢٦).

(٢) هو: هبة الله بن موسى بن أبي عمران الشيرازي، أبو نصر، المؤيَّد في الدين، داعي الدعاة، من زعماء الإسماعيلية وكتابها. ولد بشيراز وبها تعلم. وكان لأبيه، ثم له، القيام بدعوة الفاطميين فيها. ثم غادرها إلى مصر، ومنها كانت مراسلته لأبي العلاء (نحو سنة ٤٤٨هـ)، وبها توفي سنة ٤٧٠هـ (تعريف القدماء بأبي العلاء ١١٨، الأعلام ٨: ٧٥-٧٦).

أكان الطَّعن في رسالة موجهة من الطَّاعن إلى أبي العلاء أو إلى السلطان، أم كان في كتابٍ مُذاع؟

الرَّاجِح أنَّ الطَّعن كان في كتابٍ مُذاع؛ لأسباب:

منها: تسمية أبي العلاء لردِّه بـ«زجر النَّابح»؛ إذ يعني هذا أنه بصدد خَصْم لم يُراسلْه، وقد يعني أيضًا، أنَّ الطَّعن كان مسمًّى بما يقتضي هذه التسمية.

ومنها: أنَّ الطَّعن لو كان رسالة موجَّهة إلى أبي العلاء ما ردَّ وهو كارهٌ، وما احتاج في الردِّ إلى إلزامٍ من أصدقائه.

ومنها: أنَّ الطَّعن لو كان رسالة موجَّهة إلى السلطان لبدا ذلك في ردِّ أبي العلاء، الذي استنجد بالناس - لا بالسلطان - غير مرَّة.

والسادسة: أنَّ الباحث الذي أثارني لما سبق، قد أثارني لسؤال آخر، هو:

كيف لم أفكِّرْ كما فَكَّر في البحث عن مخطوطة الطَّاعن، مع أنني أَقْدَمُ منه صلةً بالمطعون في ما يبدو؟

والجواب: أنني لم أكن لأفكِّرَ كما فَكَّر؛ لسببين:

أحدهما: أنَّ الرَّدَّ على المخطوطة، وهو «زجر النَّابح»، لا يزال مفقودًا، على الرغم من وجود بعضه، الذي نشر باسم «مقتطفات» سنة ١٩٥٦م، تلك السنة التي بدأت فيها عنايتي بأبي العلاء. وإذا كان الباحث قد استجاز أنْ يستدلَّ على المخطوطة ببعض «المقتطفات»، فما كنت لأستجيزَ ما استجاز؛ لأنني بالنَّظر في ثِنتيْن مما تَرَكَ، قد وجدت ما لم يجد، من كذب وتلفيق، في مخطوطة الطَّاعن، الأمر الذي يعني - كما سبق - أنَّ المقتطفات

جميعها لن تفيَ بالدلالة على ما في المخطوطة، بل إنَّني أزعم أنَّ الرد كلَّه في «زجر النَّابح»، لن يفيَ بهذه الدلالة، لكن فرقٌ بين دلالة هي أقصى الممكن إن كانت عنِ الرد كلِّه أو عنِ المقتطَفات كلِّها، وبين دلالة هي دون الممكن لأنَّها عن بعض مقتطَفاته.

والآخر: أنَّ الباحث الذي استجاز الاكتفاء ببعض المقتطَفات، قد استجاز التقدير لكلام الطَّاعن ولألفاظه على سبيل الإيجاب، كما في (ص٣٠)، ولقد كنت معه في التقدير لمضمون الطَّاعن، لكن أن يقدِّر كلامه بألفاظه على هذا النحو، فهو ما لا أستجيزه؛ لأنَّ الأمر - كما أسلفت - مجرَّد تخمين، لا أظنه ممكنًا في الشكل إنْ أمكن في المضمون.

❋

أهم المصادر والمراجع

- الأعلام: للزركلي، ج ٨ . ط ٤ . بيروت ١٩٧٩م.
- بغية الطلب في تاريخ حلب: لابن العديم. ج ٢. تحقيق د. سهيل زكّار. بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨.
- تعريف القدماء بأبي العلاء: جمع وتحقيق لجنة إحياء آثار أبي العلاء. دار الكتب المصرية ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م.
- ديوان البحتري. ج ٢ . ط ٣ . شرح وتحقيق وتعليق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ١٩٧٧م.
- ديوان رؤبة - ضمن مجموع أشعار العرب - تصحيح وليم بن الورد البروسي. ليبسيغ ١٩٠٢م.
- زجر النَّابح - مقتطفات - لأبي العلاء المعرِّي، تحقيق د. أمجد الطرابلسي، دمشق ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- شرح اللُّزوميَّات - نظم أبي العلاء المعري - لمجهول. ج٢. تحقيق منير المدني، مراجعة د. حسين نصار، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.
- شرح اللُّزوميَّات - نظم أبي العلاء المعري - لمجهول. ج٤. تحقيق وفاء الأعصر، مراجعة د. حسين نصار، نشر مركز تحقيق التراث ١٩٩٨م.
- العمدة في صناعة الشعر ونقده: لابن رشيق. نشرة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد الثالثة. طبعة السعادة ١٣٨٣هـ.
- لزوم ما لا يلزم: لأبي العلاء المعرِّي (جزآن): تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي. نشر دار الهلال ببيروت ومكتبة الخانجي بالقاهرة ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م.
- لسان العرب: لابن منظور. ج ١٩ . طبعة بولاق بمصر ١٣٠٠هـ.
- مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، المجلد ٥٣، الجزء الثاني، ذو القعدة ١٤٣٠هـ / نوفمبر ٢٠٠٩م.
- معجم شواهد العربية: عبد السلام هارون. الخانجي بمصر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

* * *

هوداس والخطوط في الغرب الإسلامي(*)

فرانسوا ديروش(**)

ترجمة: مراد تَدْغُوت(***)

عرفت الخطوط العربية اهتمامًا كبيرًا في أوروبا، في أواخر القرن ١٢هـ/ ١٨م، ولا غَرْوَ أن «الخط المغربي» واحدٌ منها، إلَّا أنه - على ما يبدو - لم يلقَ الاهتمام اللائق به، الذي حظي به غيره، ولم يكن مردُّ هذا القُصور - بطبيعة الحال - إلى الجهل بهذا الخط، وبخصوصيته، وإنما شاءت الظروف ألَّا تلتفت عناية المتخصِّصين إليه، وألَّا تتحرك هِمَمُ الباحثين إلى سَبْر أغواره، وتنقيح أصوله، وتعقُّب مراحل تطوره، في حين بُذِلت جهود كبيرة في دراسة الخطوط الأخرى «المشرقية» ومنها الخط الكوفي، ونشرت عنها بحوث ودراسات رصينة.

ولعل أهم ما نَبَّه المستعربين الغربيين إلى خط يُدْعَى «الخط المغربي»، هو ما أثاره ابن خلدون من جَدَل حوله، بسبب إصداره أحكامًا لفتت الانتباه إلى قيمته الجمالية، وإن كان هذا الالتفات محدودًا.

تصدَّى ج.ج. مارسيل (J.J. Marcel)(١) لدراسة هذا الخط عام ١٢١٤هـ/

(*) نشر هذا البحث ضمن كتاب «المخطوط العربي وعلم المخطوطات» تنسيق د. أحمد شوقي بنبين، الرباط، جامعة محمد الخامس، ١٩٩٤م، ص٧٥-٨١.

(**) باحث فرنسي - أستاذ بجامعة السوربون الفرنسية.

(***) باحث مغربي.

(١) Jean Joseph Marcel، كان ضمن الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨، وتولى إدارة مطبعة الحملة.

أهم المصادر والمراجع

- الأعلام: للزركلي، ج ٨ . ط ٤ . بيروت ١٩٧٩م.
- بغية الطلب في تاريخ حلب: لابن العديم. ج ٢. تحقيق د. سهيل زكّار. بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨.
- تعريف القدماء بأبي العلاء: جمع وتحقيق لجنة إحياء آثار أبي العلاء. دار الكتب المصرية ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م.
- ديوان البحتري. ج ٢ . ط ٣ . شرح وتحقيق وتعليق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ١٩٧٧م.
- ديوان رؤبة - ضمن مجموع أشعار العرب - تصحيح وليم بن الورد البروسي. ليبسيغ ١٩٠٢م.
- زجر النّابح - مقتطفات - لأبي العلاء المعرِّي، تحقيق د. أمجد الطرابلسي، دمشق ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- شرح اللّزوميّات - نظم أبي العلاء المعري - لمجهول. ج٢. تحقيق منير المدني، مراجعة د. حسين نصار، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.
- شرح اللُّزوميّات - نظم أبي العلاء المعري - لمجهول. ج٤. تحقيق وفاء الأعصر، مراجعة د. حسين نصار، نشر مركز تحقيق التراث ١٩٩٨م.
- العمدة في صناعة الشعر ونقده: لابن رشيق. نشرة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد الثالثة. طبعة السعادة ١٣٨٣هـ .
- لزوم ما لا يلزم: لأبي العلاء المعرِّي (جزآن): تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي. نشر دار الهلال بيروت ومكتبة الخانجي بالقاهرة ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م.
- لسان العرب: لابن منظور. ج ١٩ . طبعة بولاق بمصر ١٣٠٠هـ.
- مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، المجلد ٥٣، الجزء الثاني، ذو القعدة ١٤٣٠هـ / نوفمبر ٢٠٠٩م.
- معجم شواهد العربية: عبد السلام هارون. الخانجي بمصر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

* * *

هوداس والخطوط في الغرب الإسلامي(*)

فرانسوا ديروش(**)

ترجمة: مـراد تَدْغُوت(***)

عرفت الخطـوط العربية اهتمامًا كبيرًا في أوروبا، في أواخر القـرن ١٢هـ/ ١٨م، ولا غَرْوَ أن «الخط المغربي» واحدٌ منها، إلَّا أنه - على ما يبدو - لم يلقَ الاهتمام اللائق به، الذي حظي به غـيره، ولم يكن مردُّ هـذا القُصور - بطبيعة الحال - إلى الجهل بهذا الخط، وبخصوصيته، وإنما شاءت الظروف ألَّا تلتفت عناية المتخصِّصين إليه، وألَّا تتحرك هِمَمُ الباحثين إلى سَبْر أغواره، وتنقيح أصوله، وتعقُّب مراحل تطوره، في حين بُذِلت جهود كبيرة في دراسة الخطـوط الأخـرى «المشرقية» ومنها الخط الكوفي، ونشرت عنها بحـوث ودراسات رصينة.

ولعـل أهم ما نَبَّه المستعربين الغربيين إلى خط يُدْعَى «الخط المغربي»، هو ما أثاره ابن خلدون من جَدَل حوله، بسبب إصداره أحكامًا لفت الانتباه إلى قيمته الجمالية، وإن كان هذا الالتفات محدودًا.

تصدَّى ج.ج. مارسيل (J.J. Marcel)(١) لدراسة هذا الخط عام ١٢١٤هـ/

(*) نشر هذا البحث ضمن كتاب «المخطوط العربي وعلم المخطوطات» تنسيق د. أحمد شوقي بنبين، الرباط، جامعة محمد الخامس، ١٩٩٤م، ص٧٥-٨١.

(**) باحث فرنسي - أستاذ بجامعة السوربون الفرنسية.

(***) باحث مغربي.

(١) Jean Joseph Marcel، كان ضمن الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨، وتولى إدارة مطبعة الحملة.

١٨٠٩م، لكنه لم يزد على أن وصفه بأنه خطٌّ غير رشيق، وأكثرُ تربيعًا من «خط النَّسْخ»؛ وأنَّ خطوطه العمودية مستقيمةٌ، وأكثرُ سُمكًا. ولما جاء هوداس (O. Houdas) وَجَدَ الحقل بكرًا.

وُلد هوداس عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م، في إقليم لوَارِي (Loiret)، ثم غادر إلى الجزائر لما بلغ سن السادسة؛ ليعيش مع والديه هناك. وارتبط مسارُه المِهْني مُنْذ وقت مبكر جدًّا بمجال تدريس اللغة العربية في الجزائر في أول الأمر، ثم في المدرسة الخاصة للغات الشرقية الحية في باريس، منذ عام ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م، حيث اشتغل بالتدريس والإدارة إلى أن وافاه الأجل في باريس عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م. وتنمُّ مؤلفاته عن اهتمامه بمنطقة الشمال الإفريقي اهتمامًا كبيرًا؛ وقد أفاد في بداياته البحثية من دراساته الميدانية في المنطقة المغربية، ذلك أنه كان معنيًّا بهذا اللون من الدرس، كما أفاد من وظائفه في جمع الوثائق التي يسَّرت له عقبات البحث في حقل كان بعيدًا عن أعين الباحثين، ونذكر من هذه الوظائف - على سبيل المثال - إدارته لمشروع في تونس عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م.

حاول هوداس في بحث له عن الخطوط العربية في شمال إفريقيا، عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م، أن يتوصَّل إلى أصل الخطوط العربية في بلاد الغرب الإسلامي، من خلال ملاحظة أنواعها الرئيسة، وتصنيفها بطريقة منهجية. ولا شك أن التصنيف ليس عملية سهلة، فهو يحتاج إلى وقت من جهة، ودراسة ميدانية من جهة أخرى، كما أن الدرس التاريخي في ذاته ضرورة لبناء أي تصوُّر علمي.

وقد نجح هوداس في وضع الأركان الرئيسة للبناء المعرفي الخاص بخطوط الغرب الإسلامي، حتى إن أي جهد لاحق سيكون بمثابة إضافات

أتاحتها المعلومات الجديدة التي ظهرت خلال القرن المنصرم، ولم يتسنَّ له الاطِّلاع عليها، وهذا ما يؤديه هذا البحث، الذي يسعى إلى استكمال ما بدأه، واستثمار ما لم يدركه من معلومات.

في هذه العجالة سنذكر الحجج التي اعتمد عليها الرجل، والاستنتاجات التي توصَّل إليها في بحثه الذي ارتبط بإنشاء أول مركز ثقافي في شمال إفريقيا، وتحديدًا في القيروان التي حلَّ فيها بغرض دراسة الأشكال الأولى للخط المستخدَم في جميع أنحاء الغرب الإسلامي.

ويَجْمُل بنا ونحن نتحدث عن أصل «الخط المغربي»، أن نمهِّد بأنَّ خط النَّسخ(١)، الذي وُجِد منذ القرن الأول للهجرة، لم يعتمد - في ما يبدو - في الجامعات والمدارس قبل القرن الرابع، ففي هذا القرن أعاد الوزير ابن مُقْلة إصلاحه وتطويره. كان الطلاب في بداية هذا القرن لا يزالون يستعملون مؤلفات مكتوبة بالخط الكوفي، ويستخدمون هذا الخط نفسه في تدوين ملحوظاتهم وتقييداتهم. وما يؤكِّد هـذا هو عثـور هوداس على مَلْزَمَة من «المدوَّنة» اقتُنِيَت من خزانة القيروان، وحُفِظَتْ بمكتبة اللغات الشرقية برقم (٤٠٢ج عربي). وتتجلى أهمية هذه المخطوطة، في أنها تضمَّنت إجازة سماع، مؤرخة عام ٣٣٧هـ، ونظرًا لعدم وجود تاريخ النَّسخ عليها، فإنَّ تاريخ السماع ساعد على تقدير سنة النَّسْخ، إذ قدَّرها هوداس في عام ٣١٥هـ. وهي منسوخة بخط كوفي مائل، ذي زوايا حادة؛ ولكنَّ شكلَ الحروف في الحواشي لم يكن بدرجة الحِدَّة نفسها. وقد اكتشف من خلال مقارنة سريعة بين خطِّ هذه النُّسخة والخط المغربي، أنَّ بعض الحروف في الخط الكوفي القديم قد اختلف شكلُها في الخط المغربي.

(١) أولى أن يقال «الخط النَّسخي» وهو الخط العادي غير الكوفي، أما «خط النَّسخ» فهو خط لم يرَ النور إلا في عهد ابن مقلة أو قبله بقليل على اختلاف الروايات. (المجلة).

وفي سياق بحثه عن خصائص تقريبية أكثر وضوحًا للخط المغربي، وجد قطعة مخطوطة أخرى، هي - على الأرجح - كسابقتها، من خزانة القيروان، وهي غير مؤرَّخة، وقد قدَّر تاريخ نسخها بأواخر القرن الرابع للهجرة، أو بداية القرن الخامس للهجرة، وتمثِّل - بشكل لا لَبْسَ فيه - التحوُّل المباشر لخصائص الخط الكوفي إلى خصائص الخط المغربي[1]. وعليه فقد رفض رأيَ ابن خلدون، الذي عزا فضل التَّحول والتَّطور في الخط المغربي من صورته الأولى إلى الصورة التي استقرَّ عليها، إلى المهاجرين النازحين من الأندلس إلى العَدْوة المغربية، ومن ثَمَّ رأى أنَّ هذا التطور حُسِم بشكل تلقائي، بوَصْفِه ثمرة لاختلاف البيئة الشرقية عن البيئة المغربية، وأن أوجه التشابه بين الخطَّيْن المغربي والكوفي قائمةٌ، وتدلُّ بوضوح على أنهما من مصدر واحد.

بقي أن نذكر السَّبب الذي جعلَ الجزْءَ الغربي من العالم الإسلامي لا يعتمد خط النَّسخ، في الوقت الذي كان فيه الشرق - بالتَّأكيد - يعتمد هذا الخطّ. لقد أرجع هوداس السبب في ذلك إلى أنَّ انتشار الخط المائل في جميع أنحاء الغرب الإسلامي هو الذي حال دون دخول خط جديد، هذا بالإضافة إلى الصعوبة التي تواجه المغاربة؛ للحصول على نوع من القصب اللازم لكتابة خط النَّسخ بشكل صحيح. وهكذا فإن المؤلف عاد ليتفق مع ابن خلدون في أنَّ الخط المغربي لم يتطوَّر في عُظْم بلاد الغرب الإسلامي، باستِثْناء الأندلس.

وقبل الاسترسال في تفصيل المشكلات المثارة، يجب أن نَلفت الانتباه

(1) يُعَدُّ أحمد بن وحشية (ت٢٦٦هـ) من الأوائل الذين ذكروا مصطلح الخط المغربي في كتابه «شوق المستهام في معرفة رؤوس الأقلام». (المجلة).

إلى أنَّ الاحتفاظ بمصطلح «الكوفي» - كما سبق أن ذكر هوداس - أسهم عن غير قصد في تكريس اللَّبْس بين الخطين الكوفي والمغربي. وليس لهذا اللَّبْس تأثيرٌ على جوهر تحليله؛ ذلك لأنه وَضَّحَ الفرق بين الخط الكوفي - الذي من شأنه أن يتوافق مع ما نقترح أن نطلق عليه «الخطوط العباسية القديمة» - من جهة، والخط الآخر ذي الأحرف المائلة من جهة أخرى.

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هناك محاولة للنيل من حجته المؤكِّدة على وجود خيط رابط بين الخط الكوفي والخط المغربي، حاول أصحابها أن يشوِّهوا أطروحته، مستندين استنادًا واهيًا إلى مصطلح «الكوفي» ذاته، على اعتبار أنه ذو دلالات متناقضة. ويمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فنقول: إن هوداس نفسه كان ضحية ندرة المصطلحات الباليوغرافية العربية، ذلك أن إصلاح ابن مُقْلة في الشرق، استعاض بخط النَّسخ عن الخط الكوفي، وكان ينبغي أن يكون واضحًا في ذهن المعترضين عليه أن الخط الكوفي هو الذي أنتج خطوط الغرب الإسلامي، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإن خط النَّسخ في القرن الرابع للهجرة، يتَّسم - حقيقة - باختلافات جوهرية عن خط النَّسخ في القرن الأول للهجرة، وعليه فإن تحديد الخصائص الفنية للخطوط، من شأنه أن يميِّز الخط الكوفي عن غيره، ويحول دون الخلط بينها.

هذا وقد تنبَّه هوداس لأهمِّية نوعِ الخط الذي كُتبت به مخطوطة معهد اللغات الشرقية رقم (٤٠٢ج)، إذ يعد حقيقةً خطوة مهمة في تطوُّر «الخط المغربي»، ولكن بدلاً من تسميته باسم «الخط الكوفي» سنقترح اسمًا بديلاً له - ولو مؤقتًا - وهو: «الخط العباسي»، وهو يستعمل في المخطوطات غير القرآنية التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث للهجرة. وتتمثل وشائج الارتباط

بين هـذا الخـط وبين الخـط المغربي، في تلك التي ذكرها جيه ديفيد - وايل (J. David-Weill)، عندما وصف مخطوطة ابن وهب التي نُسخت في مصر نحو عام ٢٧٦هـ، بأن خطَّها «خط مغربي قديم».

ولا شك أن «الخط العباسي» الذي ظهر في القرن الثالث للهجرة له جذور وتقاليد قديمة، وهذا ما تشهد به ورقة بردية أدبية عربية، قامت بنشرها نبيهة عبود (N. Abbott)، ومن خلالها اقترح جروهمان (A. Grohmann) تسميته بـ«الخط المغربي الأول» «Protomàgrabi». وعلى الرغم من أن أقدم ورق بَرْدي عربي وصل إلينا، ينحدر من القرن الثاني للهجرة[١]، فقد وُجِدت وثائق عالجت الحوامل الرئيسة لورق بردي ينحدر من القرن الأول للهجرة، وهذا الذي أسهم - بحسب هوداس - في نشوء «خط النَّسخ». ومظاهر ارتباط هذه الحوامل بـ«الخط المغربي» واضحة، وقد تمثَّلت في نموٍّ شبهِ خطيٍّ للألف المتطرفة، وانحناء ساق الطاء، وكِبَر لَوْزة العين المبتدأة، والوصلات «المسنَّنة»... إلخ، وهكذا فعلى الرغم من الاختلافات التي سنعود إليها، يُعَدُّ «الخط المغربي» وريثًا لـ «الخط العباسي»، الذي حافظ على الأشكال التي يعود تاريخها إلى الأيام الأولى للإسلام، قبل أن يظهر «الخط الكوفي».

وفي إطار توصيف هوداس للخطوط العربية وبيانه لأسمائها، ذكر أن «الخط المغربي» ينحدر أصله من «الخط العباسي» - كما سلفت الإشارة - وهذا يجعلنا نتساءل عن مدى تأثير هذا التباين الجغرافي والتاريخي على العلاقة بين الخطين. في الحقيقة، حاولت نبيهة عبود في هذا السياق، في طبعتها الأولى من الموسوعة الإسلامية، أن تُعرِّف بـ«الخط المغربي» فذكرت أنه ظهَر

(١) أقدم بردية قرآنية معروفة كُتبت عام ٢٢هـ. (المجلة).

في بداية القرن الثاني للهجرة، ولكنَّها لم تذكر أنها وقفت على أي وثيقة قديمة تُثْبِت هذا، أي تُثْبِت أنَّها نُسِخَت بـ «الخط المغربي»، اللهم إلَّا إذا كانت تقصد أنها تقع ضمن هذه الفئة من مخطوطات العصر العباسي، ذلك أنَّ جميع المخطوطات التي وصلت إلينا من هذه الحقبة، نُسِخت بـ«الخط العباسي».

ويذهب بعض الباحثين إلى تفضيل القرن الثالث للهجرة تاريخًا لظهور هذا «الخط المغربي»؛ لأنهم يستندون إلى شاهد واحد، هو مخطوطة «موطإ مالك بن أنس»، المحفوظة في خزانة تشستربيتي بدبلن برقم ٣٠٠١، وهي منسوخة على حامل ورقي، ومذيلة بحرد متن مؤرخ سنة ٢٧٧هـ. واستخدام الورق في هذه المخطوطة، يورث شكًّا في نسبتها لهذه الحقبة، ذلك أن المخطوطات المغربية المؤرَّخة في هذا التاريخ، نُسخت على الرَّق، وإن كان يجدر بنا أن نسجِّل أنَّ شكلَ الخط في هذه النُّسخة نفسها متقدِّمٌ جدًّا.

وينبغي أن نلفت الانتباه إلى أن حرد المتن فيها، قد تعرَّض جزءٌ منه للتَّحريف، مما يجعلنا نشك في أن ناسخًا قد دلَّس، حتى أعاد نسخ النص المؤرَّخ سنة ٢٧٧ هـ، بالتاريخ نفسه.

وعليه، فقد أسقطنا مخطوطة دبلن من أدلَّتِنا، وأبدلنا بها وثائق جديدة، من شأنها أن تكشف اللِّثام من جديد عما خفي من تاريخ نشأة «الخط المغربي»، وهي عبارة عن مجموعة معروفة باسم: «أوراق دمشق»، محفوظة اليوم بمتحف الفنون التركية والإسلامية في إستانبول، وتضمُّ مخطوطات قرآنية في معظمها، وقد حفظت قديمًا في الجامع الكبير بدمشق، وفيها بعض الورقات القرآنية المهمَّة المنسوخة بـ «الخط المغربي» على الرَّق، ذات شكل مستطيل، وهي تشبه معظم المصاحف التي نُسِخَت بـ: «الخط العباسي القديم» في القرنين الثالث والرابع للهجرة.

وسنذكر هنا قطعتين مخطوطتين مؤرختين:

الأولى: قطعة من القرآن الكريم، قياس: ١٤٨ × ٢٠٢مم، مسطرتها: أربعة أسطر، وحجم الكتابة كبير نسبيًّا (نحو ٢٠مم)، والنص (سورة الطلاق ٣٥- ٣٧) ويمكن أن تتوافق مع نهاية الجزء الخامس والعشرين. وحبرها بُنِّي، وهي منقوطة، وشَكْلُها بِالنقط الحمراء، تبعًا لنظام أبي الأسود الدؤلي، والشَّدَّة باللون الأحمر، وهي عبارة عن نصف دائرة مفتوحة إلى الأعلى. وزخرفة من ثلاث نقط، على شكل مثلث، توضع في نهاية الآيات، وهي زخرفة تنتمي إلى القرن الثالث للهجرة. وفي الجزء السفلي من الورقة، وبعد آيات قرآنية مضافة (من سورة يس ١ -٤) جاء حرد المتن بالحبر البني، وأعيدت كتابته بالأسود، ويظهر أنها يد غير شرقية؛ كما يلاحظ أنه قد تمَّ تعديل النص الأصلي، وذلك بإضافة ألف بعد اللام، في رقم المئات.

وتاريخها واضح، وهو: رجب، عام ٣٩٨هـ/ مارس وأبريل، عام ١٠٠٨م.

الثانية: قطعة أيضًا تؤيِّد سابقتَها، وهي ورقة منفردة ذات شكل مستطيل، كسابقتها، قياس: ١٤٤ × ١٧٥مم. والنص هذه المرة من آخر القرآن الكريم (سورة الفلق ٤، وسورة الناس ٦). ومسطرته: أربعة أسطر، بوحدة قياس (١٠مم تقديرًا). وحبرها بنِّي. وهي منقوطة، وشكلها بالنقط الحمراء؛ وتمَّ وضع علامة الشدة باللون نفسه، وهي عبارة عن نصف دائرة مفتوحة إلى الأعلى. ولم تُفصَل الآيات عن بعضها. وفي أوَّل سورة الناس كتب عنوان السورة، ومكان نزولها بحجم كبير، بالخط العباسي القديم، وكانت الكلمة الأولى باللون الأصفر، والثانية باللون الأحمر. وفي أسفل المتن القرآني شريط مكشوط. وقد أضرَّت العَجَلَة في الكتابة بالسطر الأول من حرد المتن، المكتوب باللون البنِّي أيضًا، وبقلم مختلف عن قلم النص،

وقد حاول صاحبه تقليد النمط ذي الحجم الكبير من الخط العباسي القديم. وعلى الرغم من حالة حرد المتن غير المقروء في السطر الأول، يمكن قراءة التاريخ في السطر الثالث من هذا الحرد، وهو: صفر عام ٤٣٢ هـ/ أكتوبر ونوفمبر عام ١٠٤٠م.

وعليه، فإن الكتابة المستخدمة في نسخ المتن القرآني، أبرزت الخصائص الآتية:

- «الألف» المتطرِّفة، ذات سِنٍّ تنحدر إلى أسفل الخط الأساس.
- «الباء» المتطرِّفة أو المنفردة، تشبه شكل فاصلة مقلوبة.
- ذنَب «الجيم» ملوَّز.
- سِنُّ «الدَّال» السُّفلي مائل، وسنُّها العلوي ذو زاوية حادة نحو الأعلى.
- «العين» المبتدَأ بها ذات رأس كبيرة.
- «اللام» المتطرفة، لها عرَّاقة أكثر حدورًا نحو اليسار، ويُجمَع ذَنَبُها (ويمكن تعميم هذه الملحوظة على عراقات أخرى).
- «الميم» المحقَّقة، ذات زاوية حادَّة من ناحية الجزء العلوي، وعرَّاقتها غير مسْبَلة تحت السطر.
- عَرَّاقة «النون» مقوَّرة، ويتم ترقيقُها تدريجيًّا.
- لاحظنا تردد الرؤوس «المسنَّنة» (مثلها مثل العين المتوسطة).
- هناك حالة واحدة لحرف «الصاد» القديمة، ذات الخطين المتوازيين، لكن طرفها الأعلى ذو شكل ملوَّز، وفي كلتا الحالتين، فإن فراغ التجويف يصادف نقطة تقاطع حلقة التَّلويز على غير قياس.

هاتان الوثيقتان تقـدِّمان - بلا جـدال - نموذجـًا للخـط المغـربي، وستسمحان لنا أن نستنتج أن هذا الخط استُخدِم في نسخة قرآنية في نهاية القـرن الرابع للهجرة، وهـذا يعني - دون شك - أن هـذا الخـط استوى واكتمل - بشكل تام - في منتصف هذا القرن. وما يؤكِّد هذه الاستنتاج أنَّ هناك مخطوطةً مؤرَّخة في عام ٣٧٩هـ / ٩٨٩م-٩٩٠م؛ وهي نسخة من كتاب «السِّيَر» للفَزاري، محفوظة بمكتبة القرويين بفـاس، شـأنُها شأن «الأوراق الدمشقية» السـالفة، فقـد تمَّ تمييز النونات المتطرِّفة بكسر غـير محسـوس عند أدنى نقطـة في العـراقة، تذكارًا للنموذج القـديم، الذي كان يعتمد الزوايا الحادة. كما تميَّزت الميم المحقَّقة في بعض الأحيان، بتأشير في أعلى الحرف، مع وجود حلقة تذكِّر بالنمط القديم.

وهناك أوجه تشابه أخرى بين الخط المغربي وهذه المخطوطات الثلاث، لكنها توحي - إلى حد ما - بملامح محـدودة للخط المغـربي، تمَّ الحفـاظ عليها على مرِّ العصور؛ وقد أفادتْنا بخصائص لخط قُدِّر له أن يندثر، فكانت بمثابة شواهد لمرحلة انتقالية.

ومما يزيد من أهمية مخطوطة فاس، أنَّه من بين الأجزاء الخمسة التي يتكوَّنُ منها الكتاب، وجدنا الجزء الثاني هو أقدم هذه الأجزاء، فهو يسبقها بنحو قرن، إذ انتُهي من نسخِه في ربيع الآخِر عام ٢٧٠هـ / تشرين الأول عام ٨٨٣م، وكتبت نُسخُه بمجموعة متنوعة من «الخط العباسي». ولا شك أن مظاهر الخط المغربي في هذا الجزء قد تمثَّلت في العراقات، التي سبق أن بيَّنّا أن هذا الخط يتميَّزُ بها، أما شكل «الباء» المتطرِّفة في هذه النُّسخة، فإنه يلفت الانتباه، لاتخاذه شكل فاصلة مقلوبة، بشكل واضح، وهذا أيضًا ما تمَّ اكتشاف نظير له في مقطعين قرآنيين في إستانبول. وباختصار، فهذا الجزء

الثاني من كتاب «السِّيَر» المحفوظ في فاس، يشير إلى أن هذا التطور حَدَثَ في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة، ويسمح بافتراض أن الخط المغربي بَرَزَ خلال النِّصف الأول من القرن الرابع للهجرة؛ ليصبح نحو عام ٤٠٠هـ على الأقل، خطًّا مؤهَّلاً لنسخ القرآن الكريم.

وينبغي ألَّا تجعلنا هذه المعلومات نعتقد أن اعتماد أي سمة جديدة من سمات الخط المغربي، كان بالإجماع، وفي مدة زمنية واحدة، من قِبَل أبناء الجزء الغربي من العالم الإسلامي، فالخط المغربي ما آل إلى ما آل عليه إلَّا بعد أن مرَّ الخط العباسي بمراحل، وتعرَّض - دون شك - لتطورات في حياته التي عاشها في شمال إفريقيا، وفي الأندلس.

ونود أن نشير أيضًا إلى مُصحفين مؤرَّخين - لحسن الخط - ومكانهما محدَّد. أما الأول - وهو أكثر شهرة - فهو معروف بـ «مصحف الحاضنة»، وقد نسخه في تونس الزِّيرية[1]، عليُّ بن أحمد الورَّاق؛ في عام ٤١٠هـ/ ١٠١٩م - ١٠٢٠م.

أما المصحف الآخر، فشكله مستطيل، واستُكمِل نسخُه عام ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م - ٩٨٣م في باليرمو. وعلى الرغم من وجود خصوصية لكل خط من الخطين المستخدَمين في هذين المصحفين، هناك تشابهٌ يجمع بينهما في مواضع، مثل: ذَنَب «الألف» المتطرفة، أو زاوية رؤوس بعض الحروف كما في حرف «القاف»، ناهيك عن حرف «الميم»؛ ويمكن أيضًا ملاحظة حرف «النون» بثلاثة أجزاء، وكذا الحروف «المسننة».

وباختصار، فإن خصائص مجموعة كبيرة من حروف «الخط العباسي»، وخط النمط الجديد، متوفرة في المخطوطات غير القرآنية التي نُسِخت في

(١) نسبة إلى الأمير باديس الزِّيري. (المترجم).

العصر الذي نُسخت فيه مصاحف الخط المغربي، واستمر هذا التوافق بين النُّسخ القرآنية وغير القرآنية في هذه الخصائص، حتى منتصف القرن الخامس للهجرة على الأقل. وعليه، فإن استخدام هذا الخط لم يكن يقتصر على المخطوطات القرآنية فقط، وإنما كان يستخدم أيضًا في المخطوطات الفقهية القيروانية في نهاية القرن الرابع، وبداية الخامس للهجرة، ونقدِّم مثالاً على ذلك كتاب «المدوَّنة» النسخة المحفوظة بمكتبة القيروان، التي على صفحة عنوانها تاريخ ٤٢٤هـ. وعليها وَقْفٌ للمُعِزِّ [بن باديس الصنهاجي].

نأمل أن نكون قد أسهمنا من خلال هوداس في توضيح التسلسل الزمني لهذه المرحلة الانتقالية، التي ظهر فيها الخط العباسي، وصورته الخطية، التي انتشرت تدريجيًّا حتى اتسع نطاق استخدامها.

وبقي أن نثير سؤالين، هما: ما هي أسباب هذا التَّغيُّر؟ وأين كان هذا التطوُّر؟

من الصعب جدًّا الإجابة عن هذين السؤالين؛ نظرًا لضعف الأدلة المتوفرة لدينا. وعلى كُلٍّ ففي ما يتعلق بجغرافيا هذا التطور، يمكن أن نذكر ملحوظة سريعة لـ م. موراني (M. Muranyi) توقَّع فيها أنَّ كتاب: «السِّيَر»، نُسِخَ في قرطبة. وفي المقابل، لا نعرف إلَّا القليل عن المخطوطات الفقهية في القيروان، ومنها الكتب التي نسخها الحارث بن مروان الناسخ، في القرنين الرابع والخامس للهجرة، وأفادت أن الخط العباسي كان مستخدَمًا في هذا المركز الثقافي الكبير لحدود القرنين المذكورين. ثم إن هذه الحقيقة الأخيرة، مضافًا إليها أن استخدام هذا الأسلوب الجديد كان في باليرمو، وفي تونس، تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن إفريقية وتابَعَتْها صِقلِّية، كانتا أكثر التزامًا بالنمط الذي كان قد غطَّى العالم الإسلامي كله، في حين انخرطت الأندلس في مسار النمط الجديد.

بيد أنه ينبغي الحذر من هذه النتائج؛ ذلك أن القليل جدًّا من المخطوطات، لا يتعدى عددها الخمس أو الست، هي التي تحدِّد هذا التوزيع الإقليمي. أما أسباب التغيير فليست واضحة بما فيه الكفاية، وعلى الرغم من ذلك يمكن أن نذكر واحدة من بدهيات هوداس الرائعة، التي تفترض اختيارًا تِقْنيًّا - هي التزام نوع معين من اليراع - قد يُسهم في وَسْم الخط العباسي بالطابع المغربي.

ونثير هنا سؤالاً آخر هو: إذا افترضنا أنَّ النُّساخ في المنطقة المغربية ظلوا أوفياء لنوع معين من اليراع اللازم لنَسخ «الخط العباسي»، تباين بين السَّميك والدَّقيق، هل يمكن أن نعتقد أنها قد حدَّت من فرص تطوير الخط خارج الاتجاه السائد؟

إن هذه التقنية لا تفسر - بالتأكيد - كلَّ شيء، وعلينا أن نبحث عن أسباب أخرى، وما أسهمت به في تطوُّر كتابات النُّساخ خارج مجال الكتب، مثل: رسائل السفارات. وينبغي - أيضًا - أن نتأكد - كما لفت إلى ذلك هوداس - أنه لم تظهر أي مخطوطة في الغرب الإسلامي قبل ظهور الخط المغربي.

لا شك أن العديد من طرق معرفة هذا التاريخ العريق عن الخطوط المغربية، لا تزال غامضة، ولا يملك المرء إلَّا الإعجاب بهوداس الذي تعمَّق في معرفة مراحل مهمة من هذا التاريخ. وهذا بالتأكيد بفضل إسهامه بأبحاث من أمثال هذا البحث عن أساليب الكتابة في الغرب الإسلامي، فمن خلالها بدأت الأنماط الخاصة بالخط المغربي تلقى ما تستحقُّه من اهتمام، وإنصاف، وكذا تفنيد للأحكام المسْبَقة عنها.

* * *

قواعد النشر

* تنشر المجلة المواد المتعلقة بالتعريف بالمخطوطات العربية ، والنصوص المحققة ، والدراسات المباشرة حولها ، والمتابعات النقدية الموضوعية لها .
* ألَّا تكون المادة منشورة في كتاب أو مجلة ، أو غيرها من صور النشر .
* أن تكون أصيلة فكرةً وموضوعًا ، وتناوُلًا وعرضًا ، تضيف جديدًا إلى مجال المعرفة التي تنتمي إليها .
* تستهلّ المادة بمقدمة في سطور تبين قيمتها العلمية وهدفها . وتقسم إلى فقرات ، يلتزم فيها بعلامات الترقيم التزامًا دقيقًا ، وتضبط الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار والأمثال المأثورة والنصوص المنقولة ضبطًا كاملًا ، وكذلك ما يشكل من الكلمات .
* يلتزم في تحرير الهوامش التركيز الدقيق ، حتى لا يكون هناك فضول كلام ، وترقم هوامش كل صفحة على حدة ، ويراعى توحيد منهج الصياغة .
* تُذَيَّلُ المادة بخاتمة تبين النتائج ، وفهارس عند الحاجة .
* في ثَبَتِ المصادر والمراجع يكتب اسم المصدر أو المرجع أولًا ، فاسم المؤلف ، يليه اسم المحقّق أو المراجع أو المترجم في حال وجوده ، ثم اسم البلد التي نشر فيها ، فَدَارُ النشر ، وأخيرًا تاريخ الصدور .

* ألَّا تزيد المادة على ٣٥ صفحة كبيرة (١٠ آلاف كلمة) ، وتدخل في ذلك الهوامش والملاحق والفهارس والمصادر والمراجع والرسوم والأشكال وصور المخطوطات .
* أن تكون مكتوبة بخط واضح ، أو مرقونة على الآلة الكاتبة ، على أن تكون الكتابة أو الرَّقْنُ على وجه واحد من الورقة . وترسل النسخة الأصلية إلى المجلة .
* يرفق المحقق أو الباحث كتابًا مفاده أن مادته غير منشورة في كتاب أو مجلة أخرى ، وأنه لم يرسلها للنشر في مكان آخر .
* تراعي المجلة في أولوية النشر عدة اعتبارات ، هي : تاريخ التسلم ، وصلاحية المادة للنشر دون إجراء تعديلات ، وتنوُّع مادة العدد ، وأسماء الباحثين – ما أمكن .
* يبلغ أصحاب المواد الواردة خلال شهر من تاريخ تسلمها ، ويفادون بالقرار النهائي بالنشر أو عدمه ، خلال فترة أقصاها ستة أشهر .
* تعرض المواد على مُحكَّم أو أكثر على نحو سِرِّيّ ، وللمجلة أن تأخذ بالتقرير الوارد إليها ، أو تعرض المادة مرة أخرى على محكم آخر ، أو تتبنى قرارًا بالنشر إذا رأت خلاف ما رآه المُحَكَّم ، وليس عليها أن تبدي أسباب عدم النشر .
* إذا رأت المجلة أو المُحَكَّم إجراء تعديلات أساسية ، أو تحتاج إلى جهد ووقت ، على المادة ، فإنها تقوم بإرسالها إلى صاحبها ، وتنتظر وصولها ، فإن تأخرت تأجَّل نشرها .

* * *

مجلة معهد المخطوطات العربية

علمية ، نصف سنوية ، محكَّمة
تُعْنَى بشؤون التراث العربي

قسيمة اشتراك

الاسم : ....
العنوان : ....
....
ص . ب : .... الرمز البريدي : ....
الهاتف : .... الفاكس : ....
البريد الإلكتروني : ....

الاشتراك المطلوب لمدة : ☐ سنة ☐ سنتين ☐ ثلاث سنوات ☐ أكثر
بواقع .... نسخة ، ابتداءً من تاريخ : .... / .... / ....

قيمة الاشتراك (السنوي)

للأفراد : ٢٤ جنيهًا (داخل مصر) ، ١٢ دولارًا أمريكيًا (خارج مصر)
للمؤسسات والهيئات : ٤٠ جنيهًا (داخل مصر) ، ٢٠ دولارًا أمريكيًا (خارج مصر)
سعر الجزء الواحد : ١٢ جنيهًا (داخل مصر) ، ٦ دولارات أمريكية (خارج مصر)

ترسل قيمة الاشتراك بحوالة بنكية على حساب المعهد رقم ١٤/٠٩/٠٢٩٧
لدى البنك الأهلي المصري – الفرع الرئيسي – القاهرة

المراسلات : ص . ب : ٨٧ الدقي – القاهرة – ج . م . ع . برقيًا : مخطوط القاهرة .
الهواتف : ٠٠٢٠٢/٣٧٦١٦٤٠٢/٣/٥ الفاكس : ٠٠٢٠٢/٣٧٦١٦٤٠١
المقر : ٢١ ش المدينة المنورة – نهاية محيي الدين أبو العز – المهندسين .
الموقع الإلكتروني : http://www.makhtutat.net
البريد الإلكتروني : sale.manuscript@gmail.com

ثمن النسخة :
داخل مصر : ١٢ جنيهًا .
خارج مصر : ٦ دولارات أمريكية .
(شاملة نفقات البريد) .

المراسلات : ص . ب ٨٧ - الدقي - القاهرة - ج . م . ع .
الهـــواتف : ٣٧٦١٦٤٠٢/٣/٥
الفـــاكس : ٣٧٦١٦٤٠١
المـــقـــــر : ٢١ ش المدينة المنورة (نهاية ش محيي الدين أبو العز) المهندسين .



ALECSO

JOURNAL
OF THE
INSTITUTE OF ARABIC
MANUSCRIPTS

Vol. 56 - Part 1 - May 2012

The Institute of Arabic Manuscripts
Cairo - Egypt

JOURNAL
OF THE
INSTITUTE OF ARABIC
MANUSCRIPTS